تاريخ المصريين ٧

صلاح الدين الأيوبى

د. عبد المنعم ماجد

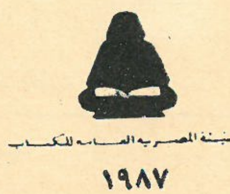
الهيئة المصرية العامة للكتاب



تاريخ المصريين

صلاح الدين الأيوبى

د. عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الإسلامى
بكلية الآداب - جامعة عين شمس



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الاخراج الفنى : محمد قطب

الغـلاف : أسامة سعيد

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

تقديم

قد يعجب بعض القراء لنشر كتاب فى سلسلة « تاريخ المصريين » – عن صلاح الدين الأيوبى ، على أساس أن صلاح الدين الأيوبى لم يكن مصريا ! ٠

وفى الواقع أنه يجب علينا عند تحديد هذه المصطلحات أن أن نضعها فى اطار العصر التاريخى الذى وقعت فيه الأحداث ، أو ظهرت فيه الشخصيات التاريخية ٠ فليس فى وسعنا أن نتحدث عن « مصرى » أو « عربى » فى العصر الاسلامى ، لأنه عصر لم تكن قد ظهرت فيه المصطلحات القومية الحديثة ، أو الدول القومية الحديثة ، وانما كان جميع المصريين ينتمون الى العالم الاسلامى الفسيح ، ولم يكن قد تولد فيهم أى شعور قومى مصرى ، وانما كان الشعور الوحيد الذى يسود بينهم هو أنهم جميعا مسلمون ٠

وهذه القاعدة تنطبق على حكام مصر ، ومنهم صلاح الدين الأيوبى ، فلم يكن يشعر بأنه كردى يحكم شعبا مصريا ، وانما كان يشعر فقط بأنه مسلم يحكم شعبا مسلما ٠

على أن اقامة صلاح الدين دولته فى مصر ، ونقله حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين من الشام الى مصر ، قد أدرجه – بالضرورة – فى قائمة حكام مصر ، فأصبح مصريا وطنا ، بقدر ما هو مسلم ينتمى الى العالم الاسلامى الفسيح ٠

والدراسة التى نقدمها فى هذا العدد من السلسلة ، كتبها الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجـد ، أستاذ التاريخ الاسـلامى بكلية الآداب جامعة عين شمس ، وصاحب العديد من الدراسات التاريخية فى مجال تخصصه ، التى تجعل منه واحـدا من ابـرز مؤرخى التاريخ الاسلامى فى مصر .

وهى دراسة جادة رجع فيها الدكتور عبد المنعم ماجد الى عدد ضخم من المصادر الاسلامية الأصلية ، واستند فيها الى الكثير من الأسانيد التاريخية ، وقد عالج فيها أحوال المسلمين السياسـية قبل مجىء صلاح الدين الأيوبى ، ثم تناول ظروف ظهـوره على المسرح السياسى ، وقضاءه على الخلافة الفاطمية ، التى تردت فى الضعف والفساد حتى استعانت بالصليبيين ، ثم قضاءه على الدولة الأتابكية ، ووراثته ملكها ، وتكوينه أكبر امبراطورية فى الشرق . ثم تفرغه لقتال الصليبيين وتغلبه على أعتى الجيوش الأوروبيـة ، تخليصه الأراضى المقدسة ، وابعاده خطر الفرنجة على مصر .

ويقينى أن القارىء سوف يستمتع بهذه الدراسة التاريخية القيمة .

د. عبد العظيم رمضان

تمهيـد :

التاريخ أستاذ يقرر دروس الحوادث ، وما يخرج منها من عظة ، فباستعراضنا تاريخ الناصر صلاح الدين وعصره ، نجد أنه يذكرنا بحوادث عصرنا ، ظهر حينما ادلهمت أحوال المسلمين فى الشرق بضعفهم وتفرقهم ، وطمع فيهم أعداؤهم من دول أوربا ، وأنشبوا أظافرهم ، فاقتطعوا أجزاء من بلادهم . حينئذ ظهر البطل الذى كان قد خلقته المواهب ، وصهرته التجربة ، ليأخذ دور المكافح عنهم والمنقذ لهم من عدوهم ، بحيث كان ظهوره أشبه بظهور رجل من رجال الأساطير ، فكان بحق بطلا من أبطال التاريخ .

ونلمس فى تاريخه شخصية أقدر رجل على فهم ظروف عصره ، وكيفية معالجتها ، كما رأى فى الدعوة للتكتل الاسلامى السبيل الفعال لدرء خطر الأوربيين ، المتعطشين لدماء المسلمين ، فدعا اليه جميع المسلمين من مختلف الأجناس سواء أكانوا عربا أم مصريين أم مغاربة أم تركا أم أكرادا أم ايرانيين . كذلك وضع نصب عينيه فى المكان الأول من سياسته اتحاد مصر والشام ، ليكون أساسا لما يجب أن تكون عليه الحال ، كلما دق ناقوس الخطر ، وظهر طمع الطامعين . فيبين المؤرخون : أن صلاح الدين كان يقاتل بعسكر من الشـام وبعسكر من مصر ، التى جاءته ــ على حد تعبير مؤرخى عصره ــ بأهلها سواء من السمر المصريين ، أو من سودان مصر .

وعلى النقيض نجد من آلامه وشكواه ، أن شعوب الترك والايرانيين انشغلت عنه ٠

وانى لأرجو أن يكون هذا الكتاب اسهاما منى فى ابراز أهمية شخصية البطل وعصره ، ليعيها أهل الشرق فى أذهانهم ، ويأخذوا منها الموعظة ٠ وان كنت أعتبره مجهودا متواضعا فى سيرته المجيدة ، يظهر بعد أن ظهرت كتب كثيرة قيمة عنه ، ليست من تأليف مؤرخى عصره ، الذين كرسوا له التراجم المسهبة فحسب ، بل ومن تأليف مؤرخين حديثين من مختلف الأجناس والأديان تناولوا سيرته الرائعة بشغف كبير ٠

المؤلف

الفصل الأول

أحوال المسلمين السياسية ٠

لا نستطيع أن نعرض سيرة الناصر صلاح الدين ، الا اذا ألممنا بالأحوال السياسية فى عصره ، ليظهر منها الى أى حد بلغ ضعف المسلمين وانقسامهم ، وطمع أهل أوربا فى بلادهم ، وهى الأحوال التى كان لها النصيب الأكبر فى ظهوره على مسرح التاريخ ، ونلخصها بالكلام فى ثلاثة عناصر : السلاجقة ، والصليبيين ، والفاطميين ٠

★ ★ ★

أما السلاجقة : فان ظهورهم كان فى فترة احتضار الخلافة العباسية ٠ فمنذ مدة كانت هذه الخلافة التى تحكم المسلمين ضعيفة ، قد انقسمت أملاكها الواسعة بين حكام مستقلين ، بحيث لم يتبق لها غير بغداد والعراق ، وأصبح الخليفة نفسه أشبه بشبح لا سلطان له تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الأتراك الأقوياء ، فظهرت لهم وظيفة امرة الأمراء ، التى أبطلت الوزارة والدواوين ، وأصبح لمتوليها كل السلطة من دون الخليفة ٠ ولهذا أطلق المؤرخون على الخلفاء العباسيين : المستضعفين ، كما أطلق المؤرخون الحديثون على خليفة تركيا فى وقت ضعفها الرجل المريض ، فقال الشاعر يصف ضعف الخليفة العباسى :

خليفـة فى قفص ، بـين وصـيف وبغا

يقول ما قـالا له ، كمـا تقول الببغـا

ولم يقف ضعف الخليفة العباسى عند حد أن يسيطر عليه رجل أقوى منه ، ولكن تطور الأمر الى أن سيطرت عليه أسرة شيعية تخالفه فى المذهب وتحكم معه وارثا عن وارث . ففى أثناء تنازع القواد الترك المتغلبين عليه فى بغداد ، تمكنت أسرة بنى بويه الشيعية — على اسم جدها أبى شجاع بويه — من دخول العراق ، حيث كان أجدادها يعيشون كجند مرتزقة أو على صيد السمك . وكان أول ظهورها بين قبائل الديلم البدوية ، وهى من أصل فارسى تأخرت فى اسلامها ، وتقيم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، ولم يكن الأمويون ومن بعدهم العباسـيون قد تمكنوا من فتح بلادهم ، الا أنهم اكتسبتهم الدعوة الشيعية وتحولوا الى الاسلام فى أواخر القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى ، ومنذ ذاك بدأت تظهر لهم أطماع فى أملاك الخلافة ، على أيدى زعماء لهم . ولكنهم على أيدى بنى بويه ، كونوا دويلات قوية فى ايران ونواحيها ، ودخل أحمد بن بويه بهم الى بغداد سنة ٣٣٤ — ٩٤٥ ، وتلقب بمعز الدولة وعزل الخليفة المستكفى ، وولى بدله المطيع لله حتى يطيعه . فكان بنو بويه مع الخلفاء العباسيين ، أكثر استبدادا من القواد الترك السابقين ذلك لأنهم كشيعة لم يكن عندهم باعث دينى على الطاعة للخلفاء الذين مذهبهـم السنة ، فكانوا يعزلونهـم ويسملون عيونهم أو يقتلونهم . كذلك أصبح الواحد منهم ، يسك العملة باسم شاهنشاه أى ملك الملوك ، ويخطب له على المنابر ، ويقرن اسمه باسم الخليفة العباسى فى خطب المساجد ، وتضرب له الدفوف — الطبول — أمام قصره فى الضحى والعشى ، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غـير الخليفة من قبل .

ولكن نازع البويهيين الشيعة فى السيطرة على الخليفة العباسى أسرة السلاجقة ، على اسم سلجوق بن يقاق أو دقاق ، الذى كان أبوه من زعماء قبائل الغز التركية . ويظهر من تاريـخ السلاجقة الأول أنهم كانوا يعيشون على نهر اتل (الفولجا) ، فى جنوب روسيا الحالية ، يخدمون ملوك الترك فى وسط آسيا ، وأنهم وثنيون أو مسيحيون وان كان يبدو أن سلجوقا ، هو أول من أدخل الغز فى الاسلام ، على أساس المذهب السنى — مذهب الخلافة العباسية — كما انتقل بهم الى أراضى بلاد ما وراء النهر الاسلامية .

وقد بدأ ظهور السلاجقة السياسى ، منذ أن تداخلوا مع بقايا السامانيين — احدى الدول الفارسية فى بلاد ما وراء النهر — اذ أن السامانيين كانوا يطلبون عون الغز ضد أعدائهم من الدول المجاورة فى وسط آسيا . ولما ساءت علاقة الغز بالسامانيين ، انتقلوا الى بلاد خراسان فى جنوبى منطقة ما وراء النهر ، بقيادة طغرلبك حفيد سلجوق . وهى بلاد واسعة كانت تخضع لدولة مجاهدة تقوم على حدود الهند ، هى الدولة الغزنوية . ولكن حدث نزاع جديد بين الغز ، وهذه الدولة الغزنوية ، فحاربها السلاجقة واستولوا على أملاكها منذ سنة ٤٣٠ — ١١٣٨ ، وانتشروا فى نواح متعددة حتى دقوا أبواب العراق . فلما استدعاهم الخليفة العباسى القائم بأمر الله سنة ٤٤٧ — ١٠٥٥ ، لانقاذه من الشيعة البويهيين ، الذين كانوا قد طردوه من منصب الخلافة ، أسرع طغرلبك بتلبية ندائه ، وأعاده الى رتبته . وبذلك أصبح السلاجقة السنيون أصحاب السيطرة فى بغداد ، حيث اتخذ طغرلبك لقب السلطان ونقشه على العملة الاسلامية ، لأول مرة ، وهو اللقب الذى ورد فى القرآن بمعنى القوة والنفوذ ، وكان يطلق على الخلفاء وحدهم .

ومن المحقق أنه لم تتحسن أحوال الخلافة العباسية بمجىء

السلاجقة ، الا من الناحية الروحية ، بالقضاء على الدولة البويهية الشيعية ، التى كانت تسيطر عليهم وتخالفهم فى المذهب ، اذ أن المسألة لم تتعد تغيير المتغلب عليهم : Changer de maitre
ولكن الأهمية الكبرى لمجىء السلاجقة جاءت من أنهم كانوا أول هجرة تركية حقيقية ، فتحت الباب على مصراعيه لهجرة أفواج الأتراك من وسط آسيا نحو العالم الاسلامى ، مما جعل التاريخ الاسلامى الى عصرنا الحديث القريب ، يتسم بسيادة الأتراك .

وكانت دولة السلاجقة فى أول أمرها ذات آمال كبار فى اخضاع المسلمين جميعا للخلافة السنية القائمة فى بغداد ، وخصوصا أنهم أظهروا لها احتراما كبيرا ، على عكس البويهيين الذين أذلوها وعملوا على الغائها . ففى عهد سلطانها ألب أرسلان ، الذى جاء بعد وفاة عمه طغرلبك فى سنة ٤٥٥/١٠٦٣ ، نجد أن السلاجقة انساحوا من العراق الى شمال الجزيرة ، وتمكنوا من السيطرة على قبائل الكرد والأرمن ، وهى عناصر مجهولة الأصل كانت تعيش بجوار الفرس منذ القدم ، ونشأت لهم دويلات مستقلة نتيجة لضعف الخلافة العباسية . وأكثر من هذا أنهم واصلوا الزحف الى أبواب آسيا الصغرى وحاربوا بيزنطة دولة الشرق المسيحية الكبرى ، التى عرفت للعرب بالروم لأنهم وان كانوا يونانيين فى الأصل فانهم اعتبروهم ورثة الرومان فى الشرق ، فهزموا جيوشهم وأسروا امبراطورهم رومانوس ديوجينيس «Romanos Diogenes» — يسميه العرب أرمانوس — فى موقعة ملاذكرد (أومناذكرد) على الفرات الأعلى سنة ٤٦٣/١٠٧١ ، فجاءوا به منبطحا على وجهه ، ليضع ألب أرسلان قدمه على رقبته على العادة التركية ، وان سمح لهذا الأمبراطور بالافتداء . وأهمية النصر السلجوقى على البيزنطيين ،

أن السلاجقة فتحوا أبواب آسيا الصغرى الشرقية أمام هجرات الترك ، فبقوا فيها الى وقتنا الحاضر .

وفى عهد ملكشاه ، الذى خلف أباه ألب أرسلان فى سنة ٤٦٥/١٠٧٢ ، استولى الترك السلاجقة على الموصل وحلب ، وقضوا على سيطرة القبائل العربية فى اقليم الجزيرة ، ثم زحفوا على الشام بقيادة تتش بن ألب أرسلان ، الذى قرر له أخوه ملكشاه فتح الشام ومصر والمغرب ، فأخذ دمشق ثم مدينة القدس وغيرهما ، ووصلت جيوشه الى حدود مصر ، التى كانت بها الخلافة الفاطمية الشيعية .

ولكن هذه الدولة السلجوقية الفتية سرعان ما دب فيها دبيب الانفصال بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ / ١٠٩٢ ، فقد كانت تحمل فى أساس نشأتها جرثومة الانحلال . اذ كان السلاطين السلاجقة قد جروا على عادة توزيع أملاكهم بين أبنائهم الأمراء ، على أن يكفلوا تربيتهم الى قوادهم الذين يسمونهم بالأتابكة : وهى لفظة تركية مفردها أتابك ، مركبة من كلمة « أتا » بمعنى أب ، وكلمة « بك » بمعنى السيد أو الأمير ، أى الذى يربى أولاد الملوك ، حيث كان هؤلاء أشبه بالوزراء المستبدين . فلما توفى ملكشاه وترك من الأولاد أربعة ، انقسمت دولته بينهم فى العراق والجزيرة وايران وخراسان ، فضلا عن أنهم ومن بعدهم أبناؤهم كانوا يتنافسون على السيطرة على الخليفة الضعيف فى بغداد ، وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لقب سلطان . يضاف الى ذلك أن أبناء تتش ومعهم أتابكتهم كانوا يتنافسون فى الشام ، وأن أعمام ملكشاه وأبناءهم كانوا يتنافسون فى ولايات المشرق بكرمان وبلخ وخوارزم وطخارستان ، كما أن بعض أقارب السلاطين أو الأتابكة كانوا يستقلون ببلاد صغيرة أو كبيرة مبعثرة هنا وهناك ، مثل حلب والموصل وأذربيجان وآسيا الصغرى ، وغير ذلك . والخلاصة أن

الدولة السلجوقية التى كان يخضع لها مسلمو الشرق ، أصبحت بعد ملكشاه عبارة عن دويلات متحاسدة تخضع لأبناء السلاطين وأقاربهم وأتابكتهم ، غمرتها حروب داخلية ، مما يدل على سوء حال المسلمين فى هذه المنطقة ٠



العنصر الثانى الهام وهو الصليبى : ونحن نعرف أنه وجدت عداوة مريرة بين أمم النصرانية والاسلام ، منذ أن أخذ المسلمون يمدون نفوذهم نحو البحر الأبيض ، حيث نفوا البيزنطيين الى أقصى بلادهم فى آسيا الصغرى ، فسيطروا فى عهد الخلفاء الراشدين على أملاكهم فى سورية والجزيرة ومصر وأرمينية ، وقبرص ورودس ، أى على معظم شرق البحر الأبيـض ، الذى يعرف فى أوربا باسم الليفانت «Levant» ٠ وسيطروا فى عهد الخلفاء الأمويين على المغرب والأندلس ، وعلى الجزائر الواقعة قبالة سـاحل الأندلس المعروفة بالجزائر البحرية « البليار » ، وعلى سردانية وأقريطش « كريت » أمام لوبية (ليبيا) ، ومعظم هذه البلاد والجزائر كانت للبيزنطيين اليونان أو للأوربيين المعروفين للعرب بالفرنجة ، أى أن الاسلام سيطر أيضا على معظم غربى البحر الأبيض ٠ ولما جاءت دولة بنى الأغلب فى شمال افريقية ، مستقلة عن الدولة العباسية ، استولت على صقلية فى سنة ٢١٢/٨٢٧ ، ثم على مالطة فى سنة ٢٢١/٨٣٥ ـ ٦ ، أو فى ٢٥٦/٨٦٩ ـ ٨٧٠ ، وفتحوا جنـوب ايطاليا وهى كالبريا التى سماها العرب قلورية ، فاستولوا عليها فى غارات متعددة ، ووصـلوا الى رومة ـ روميـة ـ فى سـنة ٢٣١/٨٤١ ، وبها يسكن البابا الذى هو رئيس النصرانية الغربية ، ودخلوا نهر التيبر وأحرقوا المدينة ، ونهبوا كنائس القديسين بطرس «San Pietro» وبولس «San Paulo» ، واضطر البابا ليون

الرابع ان يختبىء ، ثم لما أسس الفاطميون خلافتهم فى شـمال افريقيا ، بعد قضائهم على الأغالبة ، استولوا على صقلية فى سنة ٣٠٣/٩١٥ ، وأخذوا يغزون أيضا فى قلوريه ، وهاجموا لمبورديا ، وفتحوا مدينة جنوة فى سنة ٣٢٣/٩٣٥ وهاجموا ساحل الريفيرا الفرنسية ، كما غزوا سواحل بلاد الروم ، فلم تسبح للنصرانية سفن فى البحر الأبيض ٠

وقد كان من الطبيعى أن تستهدف أمم النصرانية ، الانتقام من المسلمين حينما اشتد ساعدها ٠ ولم يكن من المنتظر أن يأتى خطرها ، من جانب دولة بيزنطة اليونانية فى الشرق ، فهذه كانت قد تلقت ضربات قاضية من جانب المسلمين ، منذ انسياحهم فى حركة الفتوح باستيلائهم على أملاكها فى حوض البحر الأبيض ، ومن ناحيــة أخـرى أن حدودها فى أوربـا كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية ، وبخاصة البلغار ٠ ولما قويت بيزنطة ، بضعف الخلافة العباسية ، وبتسوية مشاكلها مع البلغار ، مدت نفوذها فى عهد الأسرة المقدونية التى كانت تحكمها الى امارات المسلمين فى شمال الشام وفى اقليم الجزيرة ، واستعادت جزائر رودس وقبرص وأقريطش « كريت » ، وجعلت منها مراكز للاغارة على سواحل المسلمين ، وفى أول عهد الفاطميين الذين كانوا قد نقلوا خلافتهم من المغرب الى مصر ، افتتح البيزنطيون الحروب الصليبية ووصلوا الى قرب القدس عدة مرات ، الا أن الفاطميين أوقفوا تقدمهم ، وأجبروهم على السكون ، وعقدوا الصلح معهم ، وان لم يستطيعوا أن يستعيدوا الجزائر التى استولوا عليها ٠ ولما جاء السلاجقة الى العراق ، زادوا من ضعف البيزنطيين ، بخاصة منذ أن تقدموا نحو أبواب آسيا الصغرى ، وفتحوها لهجرات قبائلهم ، التى كونت فيهـا امارة قوية على يد ابن عمة ملكشـاه

المسمى سليمان بن قتلمش (١٠٨٦/٤٧٩) ، فأخذت هذه الامارة تقتطع من أراضى البيزنطيين جزءا جزءا ، واتخذت قونية وغيرها بلادا لها ، وكان ملوك اليونان يدفعون لها الجزية ٠ واجمالا أصبحت الدولة البيزنطية لا تكون خطرا كبيرا على المسلمين بأية حال ٠

ولكن الخطر الحقيقى جاء من أهل أوربا ، الذين عرفوا للعرب باسم : الفرنجة أو الافرنج ، أو الفرنج «Franks» ، وبلادهم باسم بلاد أفرنجة ، نسبة الى أمة عرفت بهذا الاسم فى أوروبا ، فأطلقه العرب على كل أمم أوربا عموما ٠ وقد جاء الخطر منهم من قبل عناصر شمالية مخاطرة عرفت بالنورمان «Normands» ويسميهم العرب بالتسمية العامة بالفرنج ، ظهروا فى الوقت الذى ظهر فيه السويديون ، وغزوا انجلترا فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وتحولوا فيها الى النصرانية ، ثم انتقلوا الى فرنسا ، واستقروا فيها بالمنطقة الشمالية ، التى عرفت باسم نورمنديا ، ثم هجموا على سواحل الأندلس التى بها المسلمون في سنة ٨٤٤/٢٢٩ – وعرفوا فيها باسم المجوس – وعلى سواحل الأدرياتيك حاولوا بقيادة زعيمهم روبر جسكار «Robert Guiscard» أن يقضوا على نفوذ الدولة البيزنطية فى هذه الناحية ٠ وحينما أوقف البيزنطيون تقدمهم ، اتجهوا الى جنوب ايطاليا وصقلية ومالطة ، وكانت خاضعة للفاطميين فى مصر ، أو لآل باديس الذين حكموا فى افريقية (تونس) مستقلين عن نفوذ الفاطميين ، فاستولوا عليها جميعها بعد عدة معارك بقيادة ملكهم المسمى للعرب رجار «Roger» فى سنة ١٠٩١/٤٨٤ ، لانشغال الفاطميين وآل باديس بمشاغلهم الداخلية ٠ وقد كان استيلاء النورمان على جزيرتى صقلية ومالطة ، سببا فى تحطيم سيطرة الأسطول الاسلامى فى البحر الأبيض ، فكان أسطول صقلية يغير على مراكب المسلمين المرسلة من مصر الى افريقية وأكثر من هذا ، هاجموا طرابلس

الغرب فى سنة ١١٤٦/٥٤١ ، وكانت هى الأخرى قد استقلت عن نفوذ الفاطميين فى مصر ، كما ستولوا على المهدية – ميناء هام – من آل باديس فى سنة ١١٤٨/٥٤٣ ٠ وقد تحالف مع النورمان على القضاء على نفوذ المسلمين فى البحر الأبيض ، دويلات قوية بدأت تظهر فى ايطاليا ، مستقلة عن نفوذ بيزنطة ، التى ضعفت بغزو النورمان ، مثل : بيزة وجنوة والبندقية ٠

كذلك جاء الخطر من قبل فرنجة الأندلس ، فنعرف أن المغاربة – وكانوا يعرفون بالبربر – خرجوا مع جيوش العرب لفتح هذه البلاد فى عهد الخلافة الأموية ، وأنهم فتحوها كلها ما عدا المنطقة الصخرية النائية على الساحل الشمالى الغربى ، المعروفة باسم : جليقية ، فبقيت بيد فرنجة الأندلس ٠ ولما انفصلت الأندلس فى حكمها عن الدولة العباسية على يد سلالة أموية ، فرت اليها بعد القضاء على دولتهم فى المشرق ، وكونت فيها امارة مستقلة ، ثم تحولت الى خلافة مزدهرة تنافس الخلافتين العباسية والفاطمية ، ولكن بضعف المسلمين فى الأندلس ضعفت وانقسمت الى عدة دويلات يحكمها ملوك عرفوا بملوك الطوائف ٠ وقد كان هذا سببا فى شد أزر فرنجة الأندلس ، بحيث بدأوا يسترجعون جزءا جزءا من الأراضى التى تحت سيطرة المسلمين ، وظهرت الحركة المعروفة فى التاريخ بعصر الجهود المسيحية لاستعادة أملاكهم : «Reconquista» ٠ فاستولوا بقيادة ملكهم ألفونسو السادس «Alfonso VI» ، الذى يسميه العرب الأذفونش على طليطلة «Toledo» فى سنة ١٠٨٥/٤٧٨ ، وفى الوقت نفسه أنشأ ألفونسو هنريك «Alfonso Enrique» دولة البرتغال فى الجزء الغربى من الأندلس ، التى حدها نهر تاجه (التاج) «Tago» ٠

ولحسن الحظ حد من انتصار فرنجة الأندلس ، ظهور دولة فتية بالمغرب ، تكونت من قبائل بربرية أشهرها لمتونة ، التى

كانت تسكن على حدود الصحراء فى الجنوب ، وقامت تحت تحريض فقيه اسمه عبد الله بن ياسين ، بنشر أحكام الشرع بين القبائل المجاورة ، وأنشأت لأتباعها ما عرف : « بالرباط » جمع « ربط » أو « رابطة » ، وهى أماكن للجهاد ، لذلك سميت الدولة التى أنشأها من البربر زعيم لمتونة المسمى أبو بكر بن عمر — وهو من أتباع ابن ياسين — بدولة المرابطين نسبة الى هذا الرباط ، أو بدولة الملثمين نسبة الى اللثام ، الذى كانوا يلبسونه فى الصحراء ليقيهم من الحر والبرد كما يفعل العرب فى الصحارى . وقد كان ظهورها فى المغرب وقت ظهور الأتراك السلاجقة فى المشرق حوالى سنة ١٠٥٦/٤٤٨ ، ثم لما امتدت رقعتها فى المغرب الأقصى أنشأت لها فى شمالها عاصمة عرفت بمراكش فى حدود سنة ١٠٧٧/٤٧٠ ، كما أن رؤساءها منذ أبى بكر بن عمر كانوا على المذهب السنى ، ويكتفى الواحد منهم بلقب أمير المسلمين ، ولم يلقبوا بلقب الخلافة : أمير المؤمنين . واجابة لطلب المسلمين بالأندلس ، عبرت جيوش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين اللمتونى ، الذى تولى رئاسة البربر بعد مقتل ابن ياسين فى احدى المعارك ، وموت ابن عمه أبى بكر بن عمر ، فقاموا بالجهاد وأوقفوا زحف النصارى فيها ، حيث هزموهم فى موقعة الزلاقة المشهورة «Zallaca» ، قرب قرطبة سنة ١٠٨٦/٤٧٩ .

هذه الدولة البربرية الفتية ، التى انقذت الاسلام فى الأندلس ما لبثت أن ضعفت بدورها ، مما هيأ لفرنجة الأندلس أن يعاودوا التقدم . ولكن ظهر فى المغرب من جديد دولة أخرى من قبائل بربرية تعرف بالمصامدة ، وتقيم فى جبال درن (أطلس) المحيطة بمراكش ، جمعها حوله مصلح دينى أو آمر بالمعروف اسمه ابن تومرت وعرف بالمهدى ، كان يدعو للتوحيد ، وترك الفساد الذى وقعت فيه دولة المرابطين . فيقوم أحد أتباعه واسمه عبد المؤمن ،

بجمع شتات قبائل المصامدة سنة ١١١٨/٥٢١ ، وتكوين دولة قوية نسبت الى مبدأ التوحيد ، فعرفوا بالموحدين ، وكان الواحد منهم منذ عبد المؤمن يتسمى بأمير المؤمنين ، كأى خليفة . هذه الدولة البربرية كالسابقة قامت بالجهاد ، فسيطرت على معظم المغرب وطردت النورمان (الفرنج) من المهدية سنة ١١٥٩/٥٥٤ ، بعد أن احتلوها اثنتى عشرة سنة ، وهاجمت فرنجة الأندلس عدة مرات ، وأوقفت تقدمهم . والخلاصة أن فرنجة الأندلس كان أمامهم من يشغلهم ، ويحد من خطرهم .

ولكن الخطر الداهم على المسلمين ، أتى على الخصوص من عناصر الفرنجة الساكنين فيما سماه المؤرخون العرب فى العصور الوسطى بالأرض الكبيرة ، وهى تمتد من شمال الأندلس الى رومة شرقا . فهذه الأمم كانت فى أصل نشأتها عبارة عن قبائل وثنية عديدة ، وصفت بأنها ذات ألسن كثيرة ، وتعيش عيشة القبائل الهمجية «Barbaros» ، وكانت تهاجم الامبراطورية الرومانية ، التى تحمل مشعل الحضارة وقتئذ . ولما انتشرت المسيحية ووصلت الى رومة ، كانت كنيستها سباقة الى كسبهم الى المسيحية ، فكان تحولهم اليها سببا فى تقويتها ، بحيث استطاعت هذه الكنيسة أن تقف ندا للكرسى البطريركى فى القسطنطينية ، واختصت من دون الكنائس الأخرى بلقب : « البابا » ، بعد أن كان هذا اللقب لكرسى الاسكندرية ، وانفصلت عن كرسى القسطنطينية فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولا سيما أن اعتقاد رؤسائها يخالف اعتقاد بيزنطة . وحينما ضعفت بيزنطة كانت البابوية فى رومة تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة على جميع أمم فرنجة أوروبا ، بحيث أن من خالف البابا ، كان يعتبر خاطئا عاصيا ، يستحق النفى والطرد والقتل ، ويحرم من حقوق المسيحى وأكله وشربه ، والزواج من النصرانيات ، فكان سلطان البابا قويا لا يمكن لأحد

مخالفته . ومن ناحية أخرى كان تحول هذه الأمم الى المسيحية ، مساعدا على ظهور ممالك قوية فى أوربا ، صارت منافسة خطيرة لدولة الروم فى ميدان الزعامة على المسيحيين .

ومع أن أغلب هذه الأمم من الفرنجة لم يكن الاسلام قد عاداها ، فيما عدا فرنسا ، التى أغار عليها المسلمون وهاجموا أراضيها وسواحلها ، فى عهد الأمويين والعباسيين ، وهى البلاد التى جاورت بلادهم فى الأندلس ، وعرفت لهم باسم أفرانسة أو أفرنجة العظمى ، لأنها كانت على الخصوص موطن أمم الفرنجة أو الفرنج ، الا أنه حينما دعيت أوربا الى حرب المسلمين ، أصبحت أممها جميعا من أشد أعداء الاسلام ، واتسع نطاق الصراع ، واتخذ شكل حرب عالمية .

ويبدو أن السبب الرئيسى فى عداء أوربا للمسلمين ، هو الحج المسيحى الى الأماكن المتصلة بذكريات المسيحية فى مدينة القدس أو بيت المقدس بفلسطين ، أو ما عرف قديما بايلياء ، أو بأورشليم ، وهى جميعا أسماء تعنى القداسة أو الطهارة أو بيت الله . ويدعونا هذا الى أن نتكلم عن الحج المسيحى بالتفصيل : فليس لدينا ما يدل على وجود عقائد مسيحية قديمة للحج ، أو أنه فرض دينى كما هو عند المسلمين . ولكن يظهر أنه بدأت تظهر له عقائد بقيام الدولة البيزنطية ، التى ورثت الرومان فى الشرق ، وأخذت بدين المسيح ، ودانت بتعظيمه . فيروى المؤرخون ـ ومنهم العرب ـ أن هيلانة «Helena» أم قسطنطين «Costantinus» ، أول امبراطور لهذه الدولة المسيحية ، ارتحلت الى القدس فى طلب الخشبة التى صلب عليها المسيح ، فاخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات ، فاستخرجت الخشبة وبنت مكانها كنيسة ، عرفت باسم كنيسة القيامة كأنها

على قبره ، أو كنيسة القمامة لوجود هذه القمامة ، ثم بنى البيزنطيون فى بيت لحم المجاور للقدس كنيسة على المكان الذى ولد فيه المسيح ، فكان النصارى من جميع البقاع يذهبون الى القدس لزيارة هذه الأماكن المقدسة . وقد أوقفت غزوات الفرس للشرق هذه الزيارات ، وبخاصة فى ٦١٤ م ، ولكن حين استرجع هرقل «Heraclius» ـ امبراطور بيزنطة ـ هذه الأراضى فى ٦٢٢ م ، عاد النصارى للحج زرافات الى فلسطين . ولما جاء المسلمون كفاتحين لفلسطين ، نجد أن بطريرك بيت المقدس اليونانى ، واسمه صفرنيوس «Sophronius» ، يصمم على تسليم بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، على أن يمنح النصارى الأمان لدينهم ولكنائسهم ، فقبل الخليفة وقدم الى فلسطين فى سنة ١٧/ ٦٣٨ ، وهو راكب بعيرا أحمر ، وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء ، ودخل القدس التى سلمها اليه البطريرك ، ومنح أهلها النصارى الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ، وقد صالحهم وحدهم دون اليهود ، وامتنع من أن يصلى فى كنيسة القيامة ، حتى لا يحولها المسلمون الى مصلى . وقد كان تسامح خلفاء المسلمين سببا فى استمرار الحج المسيحى ، وأثبت المسلمون أنهم غير متعصبين ، بحيث أن مؤرخى أوربا وحدهم أوردوا أن الخليفة العباسى هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣/٧٨٦ ـ ٨٠٩) ، جعل لامبراطور الفرنجة فى أوربا شرلمان الاشراف المعنوى على بيت المقدس ، وأرسل له جملة هدايا منها مفاتيح كنيسة القيامة . ولما أسس الفاطميون خلافتهم فى مصر ، واستولوا على الشام من العباسيين ، نجد أن الخليفة العزيز الفاطمى (٣٦٠ ـ ٣٨٦/ ٩٧٠ ـ ٩٩٦) ، يصاهر بطريرك بيت المقدس ، وهو لم يكن متسامحا فقط مع النصارى ، بل ومع اليهود . حقا ان الخليفة الفاطمى الذى أتى بعد العزيز ، وهو الحاكم (٣٨٦ ـ ٤١١/ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠) ، أظهر تعصبا : فمنع

النصارى فى بيت المقدس من الاحتفال بأعيادهم ، وهدم كنيسة
القيامة المقدسة وغيرها من الأماكن الدينية ، بما فيها أديرة للنساء ،
وفرض عليهم وعلى اليهود لبس علامات مميزة « الغيار » لاظهار عزة
الاسلام ، بلبس ثياب سوداء أو تعليق الصليب وابرازه ، مما أدى
بنصارى بيت المقدس من غير العرب الى الهجرة الى بلاد الروم .
وتوقف الزيارات . وقد أثار هذا التصرف غضب النصرانية عموما ،
الا أن الخليفة الحاكم عاد الى حسن معاملة النصارى ، وأمر باعادة
بناء الكنائس ، ومن بينها كنيسة القيامة المقدسة . ولما هاجم
السلاجقة أملاك الفاطميين فى الشام ، ساءت أحوال نصارى بيت
المقدس ، وتوقفت الزيارات اليه ، لأنهم حينما عملوا على فتحه
من يد الفاطميين ، هاجمه القائد التركى المسمى أتسز أو الأقسيس ،
من قبل تتش أخو السلطان ملكشاه فى سنة ٤٦٣/١٠٧٠ و ٤٦٩/
١٠٧٦ ، ونهبه وقتل كثيرا من أهله ، فغضب تتش عليه وقتله .
وولى غيره واسمه سكمان أو سقمان . ثم ان الفاطميين عادوا بعسكر
من مصر ، لاسترداد بيت المقدس من السلاجقة بقيادة وزيرهم
الأفضل فى سنة ٤٨٩/١٠٩٦ ، بمعاونة أهله ، وأنابو فيه رجلا
عرف بافتخار الدولة ومعه حامية مصرية ، بقيت فيه الى وقت
مجىء الفرنجة فى الشرق .

مهما يكن فان فرنجة أوربا اتخذت شكوى الحجاج الى بيت
المقدس ذريعة لحرب المسلمين ، فنجد البابا اربانوس الثانى
(اربان) «Urbanus II» (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) - وهو أول
بابا التجأ من ايطاليا الى لويس السادس «Louis VI» ملك فرنسا -
يكلف رجل الدين الفرنسى بطرس الراهب «Pierre l'Ermite» ،
بالدعوة الى الحرب المقدسة ضد المسلمين ، لتخليص الأماكن المقدسة .
وهكذا كانت فرنسا أول داعية لحرب المسلمين ، اذ أنها لم تكن قد
نسيت غارات المسلمين فى أراضيها ، وأنها هى التى دافعت عن

المسيحية فى الموقعة المعروفة عند العرب باسم بلاط الشهداء ،
لكثرة ما سقط من قتلى المسلمين ، بما فيهم قائدهم عبد الرحمن
فى سنة ١١٤/٧٣٢ . فعقد فى كليرمون فران
«Clermont-Ferrand» - أكلرمنت - بجنوب فرنسا ، مؤتمر اجتمع
فيه الفرنجة من جميع أركان أوربا ، خطب فيه كل من البابا وبطرس ،
حاضين على حرب المسلمين ، فقال البابا فى خطابه : « انه من
الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب فى طريق
المسيح ، واذا لم يستطيعوا فليقدموا أموالهم ، وقال بطرس الراهب :
« انى نظرت قبر المسيح محتقرا مهانا وزواره مضطهدون » . فصرخ
الحاضرون بالحرب ، وهم يرددون : « الله يريد ذلك » ،
«Dieux le volt» (Dieu le veut) ، وهى العبارة التى أصبحت
صرخة المسيحية فى حرب المسلمين . فأخذ الفرنجة يتجمعون من
كل مكان لقتال المسلمين ، وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على
الكتفين صليبا من قماش أحمر «Crux» ، لذلك عرفت الحروب
التى قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية «Cruzada» ،
أو ما يسميه الأوربيون فى لغتهم الفرنسية : «Croisades»
والانجليزية «Crusades» . أما المؤرخون العرب مثل ابن تغرى
بردى فسموها بحركة الفرنج .

وقد اشترك فى أول موجة صليبية رجال ونساء وأطفال جاءوا
من كل مكان من أوربا ، يقودهم بطرس الراهب الى بيت المقدس .
حيث تحركوا بزحوفهم الحاشدة عبر وسط أوربا ، فى نفس الطريق
الذى سار فيه الأمبراطور قسطنطين الى القسطنطينية . فقتلوا
اليهود فى طريقهم ، كما أنهم لكى يحصلوا على ما يمسك رمقهم
كانوا يسلبون وينهبون . ويصف لنا المؤرخون اليونان وغيرهم ،
هذه الموجة الصليبية المتعصبة بأنها كانت تتكون من جماعات من
الأفاقين ، لا يستحقون مشاهدة قبر المسيح . فلما وصلوا الى أسوار

القسطنطينيـة فى ٤٨٩/١٠٩٦ ، نصـحهم ألكسيوس كومنينوس «Alexius Comnenus» (١٠٨١ – ١١١٨ م) ، بألا يتسرعوا فى العبور الى آسيا الصغرى ٠ ولكنهم أساءوا التصرف ، فاحرقوا القصور ونهبوا الكنائس ، فأمرهم بالرحيل ، ولا سيما أنه خاف من أن تسخط عليه أوربا من منعهم ، وكان يسره بطبيعة الحال أن يحاربوا الأتراك السلاجقة ، الذين احتلوا أجزاء من بلاده فى آسيا الصغرى ٠ وتروى المراجع الصليبية أن السلاجقة قاتلوهم بقيادة شخص اسمه سليمان «Solimanus» ، الذى لا يمكن أن يكون سليمان بن قتلمش مؤسس امارتهم ، لأنه كان قد قتل قبل ذلك فى سنة ٤٧٩/١٠٨٦ ، وخلفه ابنه المسمى قلج أرسلان ، أى سيف الأسد ٠ وقد انتصر الترك السلاجقة عليهم ، وأحرقوا من هرب منهم فى الغابات ، أو القوا بهم فى البحر ، واضطر بطرس الراهب قائدهم الى النجاة بنفسه ٠

وفى الوقت ذاته قامت تجمعات أخرى كبيرة ، معظمها من فرسان الفرنجة أكثر تنظيما من السابقة ، ولذا كان خطرها شديدا على المسلمين ٠ وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ارتبط اسمهم بهذه الحملة ، مثل : الأخوين الفرنسيين جودفروا الملقب دى بويون «Godefroi de Boulllon» — ويسميه العرب فى كتبهم كندفرى أوكندهرى — وبودوان «Baudouin» — ويسمونه بغدوين أو بردويل — والنورمانى بوهمند «Bohemond» — ويسمونه بيمنت أو بيمند ٠ وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة نحو الشرق من طرق متعددة ، بعضها عن طريق وسط أوربا ، والبعض عن طريق سهول ايطاليا الشمالية ٠ فلما وصلوا الى القسطنطينية سنة ٤٩٠/١٠٩٧ ، ليعبروا بحر مرمرة — أو ما سماه العرب « بالخليج » أو « المجاز » — الى بلاد الترك السلاجقة ، لم يمكنهم ألكسيوس من العبور ، وطلب منهم البقاء فى ضواحى القسطنطينية ، حتى يتعهدوا

له باعادة أنطاكية ، اذا ما استولوا عليها من أيدى السلاجقة ، اذ هى المدينة الهامة الواقعة فى وادى الأرند الأدنى على حدود الشام ٠ التى كان البيزنطيون قد استولوا عليها وقت ضعف الخلافة العباسية فى سنة ٣٥٣/٩٦٤ ، وبقيت فى أيديهم حوالى قرن من الزمان الى أن استعادها سليمان بن قتلمش ، جد ملوك آل سلجوق فى آسيا الصغرى سنة ٤٧٧/١٠٨٤ ٠ وعلى الرغم من أن الفرنجة لم تعجبهم هذه المساومة من قبل ملك بيزنطة ، فانهم قبلوا التعهد له باعادتها ، اذ كان هدفهم الأول قتال المسلمين ٠

فلما جاء هذا الزحف الصليبى الى آسيا الصغرى ، حاربوا الترك السلاجقة ، فأول ما هاجموه فيها نيقية أو أنيقية «Iconium» ، بلدة من أعمال اصطنبول كانت لقلج أرسلان ٠ وقد كان حصارها أشبه بحصار الطرواديين ، بحيث أن الصليبيين جاءوا بسفن من القسطنطينية بالثيران ٠ وقد حاول الترك استنقاذها على غير جدوى ، اذ لم ينقطع وصول الامدادات الصليبية برا وبحرا ، وكانت كثيرة ٠ وبعد أكثر من سبعة أسابيع ، قرر الترك تسليمها الى ملك بيزنطة ، دون الفرنجة ، فقبل منهم ذلك فى رجب من سنة ٤٩٠/ يونية ١٠٩٧ ، وحمل الأسرى منهم الى القسطنطينية ، وقد بقيت نيقية فى أيدى البيزنطيين الى وقت مجىء الأتراك العثمانيين ٠

بعد ذلك سهل زحف الصليبيين الى الجنوب ، بسبب وصولهم الى بلاد الأرمن المسيحية ٠ ولكنهم توقفوا أمام أنطاكية لحصانتها ، اذ كانت محصنة طبيعيا بالجبال ، وبأسوار وبروج وحصون متقدمة ، ولأن جماعات مسلمة من مدن عديدة خرجت لنصرتها ، مثل حلب ودمشق والقدس ٠ وبعد أن حاصرها الصليبيون مدة تسعة أشهر ، وبنوا أمامها قلعة جمعوا حجارتها من قبور الموتى ، استولوا عليها من صاحبها التركى ياغيسيان — يسميه الأوربيون Cassian — فى

جمادى الأول من سنة ٤٩١/ مارس ١٠٩٨ · فلما دخلوها ذبحوا
معظم أهلها المسلمين ، بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث ·
ومع أن سلاجقة الشام والجزيرة ومعهم العرب ساروا لاستعادتها
بقيادة كربوقا التركى أمير الموصل ، وكادوا يستولون عليها ،
وأصبح الفرنجة فيها محاصرين ليس لهم ما يأكلونه ، الا أن تكبر
كربوقا وانقسام القواد أضاع هذه الفرصة ، وأدى الى انهزام
المسلمين هزيمة منكرة · وكان الصليبيون قد اتفقوا مع ألكسيوس
على أن تسلم اليه أنطاكية ، الا أنهم سلموها لبوهمند – بيمنت
أو بيمند – الذى تركها بعد ذلك لابن أخيه تنكرد «Tangri» –
طنكرى – بحيث أن الكسيوس استعد لمحاربة هذه الامارة الصليبية
الجديدة ·

بعد هذا الانتصار فى أنطاكية ، سار قسم من الصليبيين
نحو بلاد الجزيرة ، واستولو على مدن عديدة منها الرها المسماة
أيضا أرفة ولليونان «Edessa» ، وهى المدينة المسيحية الهامة
الذائعة الصيت ، الواقعة بين الموصل والشام ، وكان أغلب سكانها
من الأرمن ، وليس بها من المسلمين الا القليل ، وان تمكن أتابكة
السلاجقة فى الجزيرة من وقف تقدمهم الى بغداد · كذلك ذهب
قسم آخر من الصليبيين الى الجنوب ، وكانوا يمشون على شط
البحر ، وتأتيهم المراكب الايطالية بالذخائر والرجال . فكانت مدن
الشام العليا وموانيها تسلم اليهم بدون مقاومة · وقد استعمل
الصليبيون منتهى القسوة مع أهل المدن المستسلمة ، فحينما دخلوا
معرة النعمان مثلا ، قتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة ألف ،
وأخذوا من كان حيا لبيعه ·

ويظهر أن الفاطميين فى مصر أرادوا أن يوقفوا زحف الصليبيين
نحو أملاكهم فى الشام ، بعد أن عجز السلاجقة عن صدهم ،
بالدخول معهم فى مفاوضات · ولا نصدق ما قيل من أنهم هم الذين

استدعوهم الى الشام ليستعينوا بهم ضد السلاجقة ، فالفاطميون
كانوا دائما حماة الاسلام ، وابن الأثير المؤرخ صاحب هذه الرواية
يتشكك فيها ، ويقول : « والله أعلم » · ولدينا سجلات عديدة
بتقليد وتولية أمراء مصر الجهاد ضد الصليبيين ، كما أنهم جعلوا
طائفة من الجند تعرف بصبيان الحجر من أولاد الناس ليتعلموا الفنون
الحربية ، ويكونوا مستعدين للقتال عند أول اشارة ·

ولكن الحجاج النصارى كان هدفهم بيت المقدس ، الذى كان
بأيدى الفاطميين منذ أن استعادوه من السلاجقة بعسكر من مصر
بقيادة وزيرهم الأفضل فى سنة ٤٨٩/١٠٩٦ ، وأنابوا فيه قائدا
اسمه افتخار الدولة · فحاصروه بعدد كبير ، وضربوه بالنار والحجر
من المنجنيقات ، ودافع عنه عسكر مصر بشجاعة نادرة مدة أربعين
يوما : فكانوا يفضلون الانتحار بالقاء أنفسهم من بروج الحوائط
عن تسليم أنفسهم · ولما تمكن الصليبيون من دخول المدينة فى
شعبان سنة ٤٩٢/ يونية ١٠٩٩ ، ذبحوا كل من وجدوه فيها من
المسلمين من شيوخ ونساء وأطفال ، وأحرقوا منهم من هرب الى
مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، حتى ان المراجع النصرانية
نفسها تقول : « لم نر مثل هذا الذبح من قبل فى المسلمين » ·
وكان الوزير الأفضل ، لما بلغه وصول الفرنجة الى القدس ، قد
حشد العساكر المصرية وسار بهم . فلما قرب من القدس كان
الفرنجة قد فتحوه ، وهجموا عليه وهزموه ، وأحرقوا من التجأ
من عساكره الى الغابات · وقد فرحوا بهذا الانتصار والوصول الى
مقبرة المسيح (ربهم) ، بحيث انهم كانوا يبكون من شدة الفرح ·
وهكذا سقط بيت المقدس فى أيدى الفرنجة ، بعد أن ظل فى آيدى
المسلمين منذ فتحه فى وقت عمر بن الخطاب سنة ١٧/٦٣٨ ·

وتريث الصليبيون لتنظيم الدولة التى أقاموها فى بيت
المقدس · وقد حدث نزاع على من يتولى السلطة العليا فيها : فقد

تنازعتها البابوية ، التى كانت تأمل فى السيطرة على الكنيسة
الشرقية بالاضافة الى سيطرتها على الكنيسة الغربية ، والمدن
الايطالية التى قامت بنقل الجنود والامدادات على سفنها ، وبيزنطة
التى كانت تريد استعادة مستعمراتها فى الشرق ، ولكنهم اتفقوا
أخيرا على أن يكون جودفروا - كندفرى أو كندهرى - حاميا لها ،
وان رفض أن يتخذ لقب الملك . وينسب الى جودفروا هذا أنه
وضع أساس دستور هذه الدولة ، وهى ما عرفت باسم أسس
«Assises» ، حيث أضاف اليه ملوكها من بعده قوانين أخرى
خاصة بالدولة وبنظام الاقطاع ، وان كانت هذه القوانين لم تجمع
نصوصها الا فى القرن الرابع عشر ، لأن أصولها قد ضاعت وقت
استرداد صلاح الدين لبيت المقدس . ولما قتل جودفروا من سهم
أصابه أمام مدينة عكة فى سنة ٤٩٤/١١٠١ ، اختار كبار الفرسان
ورجال الدين أخاه بودوان ، وهو الذى اتخذ لقب الملك ، ومنذ
ذلك الحين صار حكام بيت المقدس يتلقبون به . فكان بودوان يفعل
مثل ملوك الشرق ، يلبس الثياب الشرقية ، ويرسل لحيته ، ويتناول
طعامه على الأرض . وأصبحت دولة بيت المقدس نظرا لأن حاكمها
ملك تعرف بمملكة بيت المقدس ، أو بالمملكة اللاتينية ، ربما بسبب
جنسية ملوكها ، أو لأنها أنشئت فيها لأول مرة فى الشرق كنيسة
لاتينية .

وقد عهدوا فى الدفاع عن هذه المملكة لطوائف من فرسانهم ،
وبخاصة ما عرف للعرب باسم الاسبتارية — Hospitaliers —
وان عرفوا فيما بعد بفرسان القديس يوحنا . وقد سموا
بالاسبتارية ، لأنهم فى أصل نشأتهم كانوا يقومون باستقبال الحجاج
وايوائهم فى نزل Hospes ، أنشأوها لأول مرة بجوار كنيسة
القيامة . وطائفة أخرى عرفت للعرب باسم الداوية أو الديوية ،
أو ما عرف للفرنسيين باسم فرسان المعبد «Templiers» ، نسبة

الى أنهم سموا مكان الصخرة بالمعبد «Templum» ، لأن تاريخها
كان غامضا لهم . وكانت الطائفتان تملكان الحصون والأساطيل ،
ولهما حق عقد المعاهدات ، وجباية الضرائب ، بحيث كانوا دولة
داخل الدولة .

وقد تبع فتح بيت المقدس ، أن حولت جميع مساجده الى
كنائس ، وبخاصة مسجد قبة الصخرة ، الذى كان عبد الملك بن
مروان قد بناه على أساس المسجد الذى بناه عمر بن الخطاب عليها ،
والمسجد الأقصى الذى بناه الخليفة الوليد فى ساحة مسجد قبة
الصخرة ، وعرف لفخامته أيضا ببلاط الوليد . فبنوا على الصخرة
المقدسة فى المسجد كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون بها ، وأقاموا
على قبتها صليبا من ذهب ، أما المسجد الأقصى ، فانه أقيمت فيه
كنيسة ونزل لفرسان الداوية ، وأصبح يعرف لهم باسم معبد أو
قصر سليمان «Templum (palatum Salmonis» ، لأنه قيل
ان سليمان بنى فى مكانه معبدا . وقد كان التعصب الصليبى
نحو مساجد المسلمين ، يناقض ما جبل عليه المسلمون من تسامح
نحو كنائس النصارى ، بحيث تركوها لهم بما فيها من ذخائر
وتحف ، وحتى بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس ، ترك لهم
كنوز الكنائس ، ليأخذوها معهم ، وأبقى على كنيسة القيامة لا يدخلها
المسلمون .

وعلى الرغم من أن الفاطميين فى مصر حشدوا عساكرهم وعادوا
الى مهاجمة الصليبيين عدة مرات ، فان الملك بودوان - بغدوين أو
بردويل - تمكن من احراز انتصارات متتالية ، بحيث أنه لم تنته
سنة ٤٩٦/١١٠٣ ، حتى كان قد ملك كل فلسطين ما عدا عسقلان ،
التى بقيت تجاهد الفرنج حتى وقت سقوطها فى سنة ٥٤٨/
١١٥٣ . وكذلك استولوا على طرابلس فى ٥٠٢/١١٠٨ ، وبيروت

في ٥٠٣/١١٠٩ ، وصيدا في ٥٠٤/١١١٠ ، وصور في ٥٢٨/
١١٣٤ . ويقول ابن تغرى بردى المؤرخ : انه كان من الممكن انقاذ
كل هذه المدن ، لولا سوء الحالة فى بلاد المصريين .

ولم يقتصر طمع الصليبيين أو الحجاج المسلحين عند حد ،
بل انهم طمعوا أيضا فى مصر لضعفها ، وهى التى كانت تزهو
أمام أعينهم بغناها . فقد كان هم بودوان غزوها ، فذهب يستكشف
طريق الزحف ، وتوغل فى شبه جزيرة سيناء ، ودخل الفرما على
الساحل (شرق بورسعيد) بين العريش والفسطاط ، وفتحها فى
سنة ٥٠٩/١١١٥ ، ولكن الجند الدائمين الموجودين فى الشرقية .
يتقدمهم العربان حاربوه ، كما أسرع الوزير الأفضل فى ارسال
العساكر الرئيسية من القاهرة فرحل ، ومات فى طريق عودته قبل
أن يصل الى العريش . فأخذت جثته لتدفن بكنيسة القيامة ، بعد
أن ألقى بأمعائه فى مكان لا يزال الى اليوم يعرف بسبخة بردويل
أو بالسبخة .

ومعنى هذا أن النصرانية قد عادت منتصرة الى الشام والجزيرة ،
وأنه أصبحت لها مملكة وامارات فى هذه البلاد بين امارات السلاجقة
وأتابكياتهم وعلى حدود مصر ، نميز منها : امارة الرها على الفرات
التى كان يتبعها عدة بلاد ، وامارة أنطاكية فى الشمال التى امتدت
الى جبال طوروس وشمال الشام ، ومملكة القدس التى امتدت
من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر ، وامارة طرابلس التى
نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس ، واعتبرت منفذا لها على الساحل ،
وامتدت من حمص الى شمال لبنان دون أن تدخل فيها امارة دمشق
السلجوقية . ومع ذلك ، فان مملكة بيت المقدس كانت أهم بلاد
الفرنجة ، اذ كان يخضع لها أشرافهم فى الشام والجزيرة ، وموقفهم

منها قد يكون موقف الامارات السلجوقية وأتابكياتها من السلطان
السلجوقى بالعراق .

★ ★ ★

بعد ذلك نتتبع باسهاب العنصر الثالث : وهم الفاطميون ،
الذين كانوا فى أشد حالات الضعف . فهذه الأسرة من الخلفاء ،
التى حكمت مصر منذ سنة ٣٥٨/٩٦٩ ، غلبت عليها التسميات
الآتية : الفاطميون نسبة الى فاطمة ابنة النبى وزوجة على ، التى
تنسب اليها هذه الأسرة ، والعلويون نسبة الى على بن أبى طالب
مؤسس أسرتهم ، وزوج فاطمة ، والاسماعيليون نسبة الى أحد
أئمتهم المشهورين وهو اسماعيل بن جعفر الصادق من نسل على ،
والشيعة أو شيعة على ، لأنهم من نسله وأنصار حقه ، وبمعنى
آخر كانت هذه الخلافة ترتكز فى سلطتها على صلة القرابة ببيت
النبى من نسل على وفاطمة بالذات .

وقد كان أول ظهورها بالمغرب على يد عبيد الله من سلالة
على وفاطمة ، الذى أعلن الخلافة ، وتلقب بالمهدى ، وتسمى بأمير
المؤمنين فى سنة ٢٩٧/٩٠٩ ، حتى أن خلفاء الفاطميين من بعده ،
كانوا يعرفون أيضا باسمه : العبيديين . وقبل ذلك كان فقهاء
المسلمين لا يعترفون الا بخلافة واحدة هى الخلافة العباسية ، فاذا
استقل أحد الأمراء باحدى البلاد بقى يدين بالولاء لها ولو اسميا ،
فالأمويون الذين التجأوا الى الأندلس ، وكونوا فيها امارت مستقلة
بعد سقوط دولتهم فى دمشق على يد العباسيين ، فانهم مع عدائهم
الشديد لهم ، كانوا يتسمون بالأمراء أو أبناء الخلائف دون أن
يتخذوا لقب الخلفاء . ولكن اعلان عبيد الله المهدى الخلافة ، كان
سببا فى جعل الفقهاء من السنة يغيرون من رأيهم ، بحيث قدروا
امكان عقد بيعة لأكثر من خليفة ، كما أنه كان فاتحة لتعدد الخلافات ،

فتلقب عبد الرحمن من أمراء الأمويين بالأندلس بلقب الخليفة الناصر ، وتسمى أيضا بأمير المؤمنين ·

ومع ذلك ، فان خلافة الفاطميين ، لم تكن تؤمن برأى فقهاء السنة فى امكان تعدد الخلفاء ، أو أن طاعة المسلمين لهم جزئية ، وهو ما عبروا عنه بالولاية : ففى اعتقادهم أن خلافتهم وحدها هى التى يجب أن تطاع فى دار الاسلام ، وأن كل خلافة أخرى غيرها تعتبر باطلة ، اذ أن طاعتهم من ارادة الله ، بسبب أن النبى أوصى لعلى – جدهم – فى مكان بين مكة والمدينة اسمه غدير خم ، لتكون الخلافة وراثية فى بيته الى يوم القيامة ، الا أن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين اغتصبوا هذا الحق منهم ، وقد اعتبرت هذه الوصاية عندهم بمثابة القرآن ، لأن الوحى هو الذى جاء بها للنبى فى رأيهم ، وأصبحت جزءا من عقيدتهم الاسلامية ، وهى : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، وعلى ولى الله » ·

وفعلا نجد أن الخلافة الفاطمية بعد ظهورها فى المغرب ، تستولى على مصر والشام ، ومعظم بلاد جزيرة العرب ، كما أنها كانت راغبة فى محق سلطان العباسيين بالمشرق ، الا أنهم لم يقوموا بذلك بسبب أن خلفاء العباسيين كان يحكمهم البويهيون وهم شيعة مثلهم ، وكان هؤلاء يعترفون بحق امامتهم ، لذلك ظهرت عداوتهم للعباسيين فى شكل صراع سياسى · ويقول الفقيه الشيعى ناصر خسرو فى صدد ذلك : ان الخليفة الفاطمى عليه أن يقاتل الكفرة بحد السيف ، وأن يقاتل المنشقين من المسلمين بنشر الدعوة بينهم · لذلك قسم الفاطميون دار الاسلام الى أقاليم ، أو ما يسمونه جزائر جمع جزيرة ، حتى لا يخلو أى جزء منها من الدعوة الى امامتهم · وقد تمكنوا بفضل الدعوة لهم فى العراق ، من اثارة الدسائس ضد الخلافة العباسية ، بحيث طرد الخليفة العباسى القائم

من بغداد كما ذكرنا ، وخطب للخليفة المستنصر الفاطمى فيها سنة ٤٤٦/١٠٥٤ ، وكان هذا أقصى ما وصلت اليه الخلافة الفاطمية من سيطرة فى بلاد المسلمين ·

ولكن الخلافة الفاطمية ما لبثت أن ضعفت ، كما حدث للخلافة العباسية من قبل ، وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو استبداد الوزراء ، وهو نفس السبب الذى تسبب فى ضعف الخلافة العباسية ، حينما استبد بها أمراء الأمراء ، ومن بعدهم ملوك بنى بويه ، ثم سلاطين السلاجقة · فقد كان الخلفاء الفاطميون فى المغرب ، وفى أوائل حكمهم فى مصر ، يعتمدون على أنفسهم فى تصريف الأمور ، وان استخدموا فى مصر الكاتب أو المدبر أو الوسيط أو السفير ، وهى تسميات تدل على الذى يتصرف بحسب رأى الخليفة دون أن يبلغ مرتبة الوزير · ولما اتخذوا الوزراء منذ عهد الخليفة العزيز بالله ، اتخذوهم فى أول الأمر ممن عرفوا بوزراء القلم أو وزراء التنفيذ ، أى أنهم وزراء مدنيون ينفذون ارادتهم · ولكن ظروف الخلافة الفاطمية فى النصف الثانى من عهد الخليفة المستنصر بالله وما حدث فيها من مجاعات شديدة وفتن الجند ، أفقدت الخليفة ووزراءه المدنيين كل سلطة فى البلاد ، بحيث كان وزراؤه يسقطون بسرعة ، وعين فى أربع سنوات عشرين وزيرا منهم ·

ولما كان الخليفة الفاطمى عاجزا عن قمع الفتن وتصريف أمور الدولة بنفسه ، فانه التجأ الى واليه على عكة فى الشام ، بدر الجمالى من رجال الحرب أو السيف فى سنة ٤٦٧/١٠٧٤ ، لينقذ سرير ملكه المهدد · فأجاب بدر دعوته ، وجاءه فى البحر الهائج فى فصل الشتاء ، وانقذ الخلافة من الثورات ، وصرف أمور الدولة · ففوض اليه المستنصر جميع أمور الملك لقاء ذلك ، فأصبح رئيس الدولة الفعلى ، أو ما عرف بوزير التفويض ، فقد ورد فى سجل تولية

بدر : « وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك
النظر فى كل ما وراء سريره » · فكانت سلطة بدر تمتد الى كل
شىء ، فهو أمير الجيوش ، المسيطر على الجيش ، وكافل قضـــاة
المسلمين ، المسيطر على السلطة القضائية ، وهادى دعاة المؤمنين ،
أى المشرف على الدعوة الفاطمية · وقد حكم بدر للمستنصر حكما
مطلقا الى وقت وفاته سـنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، فكان المستنصر معه
كالمحجور عليه ·

وبعد بدر وجدت سلسلة من وزراء التفويض ، الذين تدخلوا
فى تعيين الخلفاء الفاطميين : فقد وجدوا فى كيفية تعيينهم ما سهل
لهم الاستبداد ، ذلك لأن تعيين الخليفة الفاطمى ، ليس كتعيين
الخليفة العباسى ، يتم باجماع الأمة الاسلامية ـ كما هو مفروض
عندهم ـ ولكن يتم بما عرف بالتنصيص أو بالنص ، لأن الامام
ينص على من يخلفه · وفوق ذلك لم يكن للنص نظام معين ، فهو
قد يكون تحريريا بوصية ، أو شفويا وهو الغالب ، أو حتى بالتلميح
بالعطف ، كما أنه لم تكن هناك شروط خاصة بعمر الامام أو حالته
الجسمية والنفسية مثلما هو عند السنة ، غير ارادة الامام ، التى
اعتبرت من ارادة الله بسبب وصاية النبى لعلى عن طريق الوحى ،
ولأن هذه التولية كان يصحبها وراثة العلم الالهى أو اللدنى ، الذى
ورثه على ومن بعده الائمة عن النبى ، فكل امام كان يلقنه لخلفه ·

وقـد بدأ استبداد وزراء التفويض بالنص منـذ الخليفة
المستنصر ، الذى كفل وزارة التفويض لأبى القاسم شاهنشاه بن
بدر ، الملقب بالأفضل ، بعد موت أبيه بدر : وكان الأفضل من
قبل ينوب عن أبيه فى الاستيلاء على أمور المملكة ، ويخطب له على
المنابر بعد الخليفة وأبيه · فقد وقع اختيار الأفضل بعد موت
المستنصر فى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ ، على أبى القاسم أحمد الملقب

بالمستعلى الابن الأصغر ، وادعى الأفضل أن المستنصر نص عليه
بالتلميح ، وبذلك تمكن من السيطرة على الدولة فى عهد المستعلى
أيضا · وحتى بعد موت المستعلى فى سنة ١١٠١/٤٩٥ ، لم يضعف
نفوذ الأفضل اطلاقا ، فأجلس للخلافة المنصور بن المستعلى ، وكان
لا يزال طفلا له من العمر خمس سنين وأشهر ، ولقبه بالآمر بأحكام
الله ـ سخرية ـ وخرج له سجل طويل ، يبين أن الآمر يتمسك
بوزارته كما فعل جده وأبوه من قبل ، فاستمر الأفضل قرابة
عشرين عاما أخرى يحكم وحده فى مصر ·

ولكن الآمر بعد أن بلغ رشده ، حاول أن يسترجع نفوذه
من هذا الوزير المستبد ، فدس له السم وقتله فى سنة ٥١٥/
١١٢١ ، وصادر املاكه وأمواله الكثيرة ، التى كانت تشمل مراكب
وبغالا وخيلا ورقيقا وحليا وجواهر ، وسجن ابنه أبى على أحمد
فلما وزر له بعده المأمون البطائحى ، وأراد الاستبداد بدوره ،
قتله وقتل خمسة من اخوته ، فى سنة ١١٢٥/٥١٩ ، وبقى بغير
وزير · ولكن هذا التمتع بسلطته لم يطل ، اذ كان عليه أن يقاتل
أعداءه من الشيعة ، الذين قالوا ان النص لم يكن لأبيه المستعلى ،
ولكن لعمه نزار وعقبه ، وهى الجماعة التى أضطهدت على يد الأفضل ،
بحيث هاجر زعماؤها الى أقاصى فارس ، وأسست الفرقة المعروفة
بالنزارية نسبة الى نزار ، وان عرفت أيضا بأسماء أخرى منها
الحشيشـة أو ما عرف للأوروبيين باسـم Assissins ، لأن
مؤسسها حسن بن الصباح (ت ١١٢٤/٥١٧) ، الذى زار مصر
فى سنة ١٠٧٨/٤٧١ ، وأفهمه المستنصر بأن نزارا سيكون ولى
عهده ، كان يعطى المستجيبين لدعوته الحشيش الذى اكتشفه فى
مصر ، ويوجههم لقتال أعدائه ، وخصوصا بعد أن استولى على قلعة
الموت فى ايران سنة ١٠٩٠/٤٨٣ ـ ١٠٩١ · وان كنا لا نعرف
موقف نزار من هذه الجماعة ، بسبب أن الوزير الأفضل بعد هزيمته

له اياه فى الاسكندرية ، أخذه الى القاهرة ، ولم يظهر له خبر ·
على كل حال فان أتباع هذه الفرقة النزارية ، تمكنوا من قتل
الخليفة الآمر ، وعمره لم يتعد أربعا وثلاثين سنة ، فى ٥٢٤/١١٣٠ ·

وقد كان سقوط الآمر صريعا سببا فى زيادة تعقيد الأمور
بالنسبة للخلافة الفاطمية فى مصر ، ولا سيما أنه كان مشكوكا فى
أن هذا الخليفة سيكون له ولى عهد · فقال بعض الشيعة فى مصر
ان الآمر ترك احدى جهاته أى زوجاته حاملا ، وأنه نص على الحمل
قبل وفاته ، وولوا عبد المجيد ابن عمه ، على صورة نائب لانتظار
حمل الآمر ، ولم يبايع بالخلافة · فلما وضعت زوجة الآمر بنتا ،
بايعوا عبد المجيد بالخلافة وادعوا أن الآمر عهد بها له ، وتسمى
عبد المجيد بالحافظ لدين الله ، أى ضمنا للخلافة الفاطمية
من الضياع ، فكانت توليته الخلافة مع أنه ابن عم الآمر ، كما فعل
النبى حين أوصى الى ابن عمه على ، مع أن النص حتى الآمر كان
ينتقل من أب الى ابن · وقال شيعة آخرون ان الآمر كان له ولد
اسمه الطيب ، وكنيته أبو القاسم ، وتناقلوا سجلا بهذا صادرا
من الآمر فى حياته الى السيدة الحرة ملكة اليمن وقتئذ ، وان كنا
لا نعرف خبر الطيب هذا ، الذى يبدو أن شيعته خوفا عليه حملوه
الى اليمن ، حيث انتشرت دعوته فيها ·

هذه الظروف المضطربة كانت سببا فى ظهور أحد الوزراء
المستبدين ، الذى كان يتحين الفرصة لاستغلالها ، وهو كتيفات
أبى على أحمد بن الأفضل السابق ، وكان ينقم على الخلافة الفاطمية ،
لقتل أبيه واعتقالها له · فقام بانقلاب عسكرى ناجح ، وفى سبيل
الاحتفاظ بسلطته ، قتل كل من عارضه من رجال الدولة ، وحبس
أفراد بنى فاطمة وبخاصة عبد المجيد ، ونقل أموال القصر الفاطمى
الى داره ، كما فعل الآمر حينما قتل أباه الأفضل · ويبدو أنه عمل

أيضا على القضاء على عقيدة الشيعة الفاطمية ، فقطع صيغة الأذان
بحى على خير العمل ، شعار الشيعة فى الصلاة ، وكتب اسمه على
العملة ، وخطب لنفسه على المنابر ·

ولكن أنصار بقاء الخلافة الفاطمية لم يرضوا أن تضيع دولتهم
على يد هذا الوزير ، فقاموا بانقلاب ناجح بقيادة يانس أحد رجال
القصر ، وقتلوا أبا على أحمد بن الأفضل ، وأخرجوا عبد المجيد
من سجنه · فلما خرج عبد المجيد اتخذ ألقابا فخمة لم يسبق
اليها لتأييد نفوذه ، فكان الخطيب فى الجامع يقول : « أصلح الله
من شيدت به الدين بعد دثوره ، وأعززت به الاسلام بأن جعلته
سببا لظهوره ، مولانا وسيدنا امام العصر والزمان أبا الميمون
عبد المجيد الحافظ لدين الله صلى الله عليه وسلم وعلى آبائه الطاهرين ،
حجج الله على العالمين » · وقد استمرت الخلافة الفاطمية تحتفل
بيوم خلاص عبد المجيد من سجنه ، وكان يوم الاحتفال به يعرف
بيوم النصر · فكان قاضى القضاة يتلو على الحاضرين أسماء من
أصيب من الأنبياء والصالحين والملوك بشدة ، حتى يصل أخيرا
الى ما وقع للخليفة عبد المجيد · وحتى لا يستبد به يانس الذى
وزر له ، وكان قد كون لنفسه طائفة من الجند عرفت باسمه
« اليانسية » ، تخلص منه بدس السم فقتله فى سنة ٥٢٦/١١٣١ ،
وان قيل ان يانسا مات موتا طبيعيا ·

وبعده لم يتخذ عبد المجيد وزراء ، واعتمد على نفسه فى
تصريف الأمور · ولكن أحد أبنائه واسمه الحسن تطلع الى السيطرة
بعد أن أكله الحقد ، لأن أباه لم يوله عهده ، فنجح الحسن فى السيطرة
على الجيش والدولة ، وقتل أمراء الدولة « القواد » وصادر أموالهم ،
واوقع بين طوائف العسكر بحيث قتل منهم خمسة آلاف ، واعتبر
المؤرخ المقريزى ذلك أول مصائب الدولة الفاطمية · فأهاج تصرفه

المصريين ضده ، واجتمع من العسكر عشرة آلاف ، فاضطر أبوه الى أن يدس له السم فقتله ·

فاستوزر عبد المجيد أرمنيا نصرانيا مهاجرا من بلاده اسمه بهرام ، لعله لا يستبد به مثل الوزراء المسلمين ، الا أنه تعصب لجنسه وكون جيشا منهم ، بلغ عدده عشرين الفا بين فارس وراجل ، وكاد الاسلام يضيع على يديه ، فعزله عبد المجيد بمساعدة رضوان بن ولخشى ، الذى طارده حتى الصعيد ، وحمل على أرمن مصر وأماكن سكناهم ، وان أخلى سبيل بهرام نتيجة لتدخل ملك صقليه رجار Roget II . فعاش بهرام بقية حياته فى أحد الأديرة · فاستوزر عبد المجيد بعده رضوان المذكور فى سنة ٥٣١/ ١١٣٧ ، وهو لم يكتف بالألقاب القديمة ، ولا خصائصها التى تدل عليها للدلالة على نفوذه الواسع ، بل أضاف الى بقية الألقاب لقب : ملك ، ومنذ ذلك الحين والوزراء من بعده يتلقبون به · ثم فسد ما بين رضوان وعبد المجيد ، اذ حجر عليه وسلك طريق الوزراء المستبدين ، فدس عبد المجيد عليه من قتله ، ولم يستوزر بعده أحدا ، وباشر الأمور بنفسه الى أن مات ·

ولكن موت عبد المجيد كان فرصة لظهور أطماع وزراء جدد ، وخصوصا أنه كان له عدة أولاد ، فنجد أحد كبار رجال الدولة واسمه أبو الفتح محمد بن مصال ، وكان من المغاربة وحارب مع نزار ، وهرب بعد هزيمته ، ثم عفا عنه الأفضل وقربه ، ادعى أن عبد المجيد نص على ابنه الصغير اسماعيل من دون بقية أولاده ، وأنه عينه وزيرا له ، وبذلك أعلن خلافة اسماعيل باسم الظافر لدين الله · فنافسه وال آخر كان على الاسكندرية والبحيرة ، اسمه على بن سلار ، استولى على الوزارة ، وتلقب بالملك العادل فى سنة ٥٤٣/١١٤٨ ، أثناء أن كان ابن مصال فى طلب احدى العصابات ،

وأرسل ضده ولد زوجته المسمى عباسا فقتله ، ولم يكن ابن مصال قد مكث فى الوزارة أكثر من أربعين يوما · ولكى يبقى ابن سلار على نفوذه أخذ فى قتل كل من اعترض على وزارته من أعيان المصريين وقواد الجيش ، اذ لم يكن للخليفة الظافر معه حكم ·

وما لبث أن ظهر لابن سلار منافس جديد فى شخص عباس ولد زوجته ، حيث جاء هاربا الى الديار المصرية مع أبيه ، الذى هرب وقتئذ من أخيه ملك افريقية (وهم من آل باديس) · فتزوج ابن سلار أم عباس بعد موت زوجها ، وولاه على الغربية ، ولكن عباسا طمع فى الوزارة وحرض ابنه نصر على قتل ابن سلار فى سنة ٥٤٨/١١٥٣ · وكان نصر بن عباس قد عرف بجرأته على الخليفة الظافر ، فخاف عباس أن يؤدى ذلك الى قتلهما ، فحرض ابنه على قتل الخليفة ، وادعى ان الذى قتله هما اخواه يوسف وجبريل ، حسدا له على توليته الخلافة من دونهما وقتلهما · ولما أخرج ابن الظافر ، وكان طفلا لا يتجاوز عمره ثلاث سنين ، أجلسه على سرير الملك ، ليعلنه خليفة باسم الفائز · ولما لم يكن القتيلان يوسف وجبريل قد رفعا بعد ، فزع الطفل لرؤيتهما ، وأصيب بخلل فى عقله ظل ملازما له طول مدة خلافته ، التى لم تدم أكثر من ست سنين ·

وعلى كل حال أوجد قتل الظافر المناسبة لثورة جند مصر ، وظهور طامع جديد فى الوزارة يهفو للسيطرة ، هو طلائع بن رزيك والى الصعيد ، لعله من أصل عراقى ، الذى زحف على القاهرة · فهرب عباس وابنه ، وكان أهل القاهرة يلقون عليهما الحجارة ، فدخل طلائع القاهرة وأقام نفسه وزيرا للفائز ، وتلقب بالملك الصالح فارس المسلمين فى سنة ٥٤٩/١١٥٤ · ولكن طلائع بن رزيك الذى بهرته أضواء الحكم استبد بدوره وأخذ فى قتل كبار

قواد مصر ، وأفنى ذوى الرأى فيها ، حتى فر عدد كبير من أهل البلاد وأعيانها الى الحجاز واليمن ، وقد فعل ذلك خوفا من أن يثوروا عليه أو ينازعوه الوزارة • ولما استولى على البلاد عين فى جميع ولاياتها اتباعه ، وباعها بأسعار معينة •

فلما مات الفائز ادعى طلائع أنه نص على ابن عمه العاضد ، الذى كان أبوه يوسف أحد الأخوين اللذين قتلهما عباس ، وكان عمره لا يتجاوز احدى عشرة سنة ، وزوجه ابنته ، ليبقى على زمام السلطة فى يده ، وذكر نفس الحجج التى قيلت عند تولية الحافظ ابن عم الآمر ، وعمل على الاستبداد به ، حتى قال ابن تغرى بردى عن طلائع : انه أقامه صورة • ولكن استبداده الشديد بالخليفة الجديد وأهله ، أثار الدسائس ضده ، مما أدى الى قتله على يد أمراء المصريين (أى قوادهم بتحريض عمة العاضد فعمل على قتلها ، وتمكن من ذلك قبل موته فى سنة ٥٥٦/١١٦١ •

ومع ذلك فان ابن طلائع ، واسمه رزيك ، الذى كان قد تولى تقدمة الجيش فى وزارة أبيه ، أجبر العاضد على أن يفوض اليه الوزارة مثل أبيه ، وأخذ لنفسه لقب العادل • ولكن ظهر له منافس جديد فى شخص والى قوص ــ وهى عاصمة الصعيد ــ واسمه أبو شجاع شاور ، حيث كانت ولايتها ذات مركز خاص فى الدولة ، وأعتبرت أكبر منصب بعد الوزارة ، بسبب أن الصليبيين احتلوا الشام ، فأصبحت تجارة مصر والحجاج تمر عن طريقها • فذهب شاور الى القاهرة فى سنة ٥٥٨/١١٦٣ ، فهرب رزيك الى أطفيح وأسر هناك ، وحمل الى مصر ليقتله طىء بن شاور ، وكان هو الآخر له طموح أبيه •

ولكن أحد أتباع رزيك واسمه أبو الأشبال ضرغام ، وكان رئيسا لفرقة جند طلائع الخاصة المعروفة بالبرقية ــ لأن أفرادها

جلبوا من برقة ــ أتى الى القاهرة من الصعيد أو من مصر ليثأر لمقتل رزيك ، ويتمكن من قتل ولد شاور الأكبر طىء ويهرب شاور الذى خذله أهل القاهرة لبغضهم له الى الشام ، ليستعين بالسلاجقة (أو الغز) ، ويتولى ضرغام وزارة العاضد ، ويتلقب بالملك المنصور • وقد كان هرب شاور والتجاؤه الى سلاجقة الشام ، سببا فى ربط تاريخ الفاطميين الى وقت سقوط دولتهم ، بعجلة السلاجقة •

والواقع ان هذا الاستبداد الوزارى شغل الفاطميين تماما عن السلاجقة ، الذين كانوا قد احتلوا بعض أجزاء فى الشام من أملاكهم وكونوا بها أتابكيات ، وشغلهم أيضا عن الصليبيين الذين تمكنوا بدورهم من تكوين دويلاتهم فيها ، بحيث أن مصر على غناها ووفرة رجالها لم تكن تقوم بشىء ضد أعداء الاسلام ، وانما كان كل مجهودها فى الجهاد ضدهم ، عبارة عن حملات يسميها ابن تغرى بردى تجريدة ، كل منها لا يتجاوز عدده ثلاثمائة الى أربعمائة ، والكثرة من أربعمائة الى ستمائة •

★ ★ ★

هذه هى العناصر الثلاثة التى تبين وقتذاك ، ظروف المسلمين السياسية ، مما هيأ لظهور شخصية المكافح صلاح الدين على مسرح الحوادث ، وهى تتلخص فى انقسام مسلمى الشرق بين خلافتين احداهما سنية ، والأخرى شيعية ، وأنه قد ضعفت السلطة المركزية فى كل منهما ، بحيث نجح الصليبيون المتعطشون لدماء المسلمين من الاستيلاء على بلادهم فى الشام والجزيرة واستذلالهم • ومن المحقق أن الأقدار هى التى ساقت صلاح الدين يوسف الى المسلمين ، ليعيد اليهم وحدتهم ، ويوقف خطر الصليبيين •

ظهور صلاح الدين ·

تتفق أغلب المصادر التاريخية على أن أصل أسرة صلاح الدين من الكرد ، ولذا أطلق على دولتهم فيما بعد : دولة الاكراد · وقد تعنى كلمة كرد الذئب ، وهى بذلك تدل على طبيعة بلاد الأكراد الجبلية ، التى كانت ـ كما يظهر ـ مأوى للذئاب · على العموم لا نعرف من أين جاء الأكراد ، ولعلهم هجرة آرية قديمة ، أشبه بمجوس الفرس ، وان كنا نعرف أنه لما جاء الاسلام اعتنقوه منذ وقت مبكر ·

وقد كان الكرد فى أول الأمر يعيشون فى قبائل متفرقة يحكمها أمراؤها ، ويبدو أنهم انتهزوا فتن الخلافة الاسلامية ، وانتشروا فى أماكن عديدة ، حتى انهم فى وقت الحجاج عامل الخلافة الأموية على العراق ، كانوا قد غلبوا على عامة أرض فارس ، فوجه الى حربهم القائد المعروف يزيد بن المهلب · كذلك انتهزوا ضعف الخلافة العباسية واشتد ساعدهم ، بحيث أن البويهيين ، الذين سيطروا على هذه الخلافة حاربوهم فى أماكن متعددة ، فى سجستان وأذربيجان ، وديار بكر بالجزيرة · لكن مجىء السلاجقة الى العراق ، قضى على نفوذ دويلاتهم ، وبخاصة فى النواحى الغربية من بلاد الجبال الايرانية ، التى أصبحت تعرف منذئذ بكردستان ، اذ أن سلاطين

السلجوقية كان أحدهم اذا ملك العراق دخلت منطقة الجبال فى ملكه ٠

ومع ذلك رأى آخر ينسب أسرة صلاح الدين الى أصل عربى ، حيث كانت قبائل العرب تنزل عند الأكراد وتتزوج منهم ، وهذه الأسرة بالتخصيص من نسل المروانيين فرع بنى أمية : فصلاح الدين هو يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى (أو شاذى) بن مروان الكردى ٠ ولعل ربطها بمروان الكردى ـ كما يبدو ـ لا يقصد به اتصالها بجد حقيقى عرف بهذا الاسم ، أكثر مما يقصد به الى أنها من سلالة مروان بن محمد آخر الأمويين ، الذى كانت أمه كردية ٠ فيقول المؤرخ المحقق ابن خلكان : انه لا يعرف لهذه الأسرة جد بعد شادى ، مع أنه اطلع على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك أفرادها ٠ ويقول المقريزى أيضا ان نسبتها الى أصل غير كردى ، هو من أقوال بعض الفقهاء ، الذين أرادوا الحظوة لديها ، لما صار الملك اليها ٠

كذلك اختلف فى المكان الذى أتت منه هذه الأسرة ، فقيل الموصل وسجستان أو دوين بلدة فى آخر حدود اقليم آذربيجان من جهة الشمال فى أرمينية ٠ ولكن من ناحية أخرى ، أجمعت المصادر على هجرتها الى العراق : فجدها شادى هاجر الى بغداد ، التى كان يسيطر عليها السلاجقة ، وأنه تداخل مع أمرائهم ورجال دولتهم بقوة شخصيته ، فمنحوه حكم قلعة تكريت على الضفة اليمنى من نهر دجلة شمال سامرا ، حيث يبدو أن أغلب سكانها كانوا من الكرد ٠ وبعد موت شادى ، أصبح ابنه نجم الدين أيوب وريثه فيها ، فعين عليها دزدارا ، أى حافظا لقلعتها : اذ دز بالفارسية تعنى القلعة ، ودار حافظها ، فكان يعاونه فى حكمها شيركوه ـ بمعنى أسد الجبل ـ الملقب أسد الدين ، وهو أخوه الأصغر سنا ٠ فولد لأيوب فى تكريت هذه ابنه صلاح الدين يوسف ، حيث ذكرت تواريخ كثيرة لمولده ، اتفق المؤرخون منها على عام ٥٣٢ / ١١٣٧ ٠

ولا ريب فى أن تاريخ الأسرة الأول غير واضح ، وان كان يشبه غيره من تاريخ الأسر الحاكمة ، التى كانت تملك اقطاعات سـواء أكانت من الترك أم الكرد ٠ ولكن حدثت ظروف ربطت مصائرها بأتابك الجزيرة وحلب على الخصوص ٠ فقد كان السلطان ملكشاه بناء على نصيحة وزيره المشهور نظام الملك ، الذى كان يسيطر على مملكته ، قد منح آقسنقر التركى حلب ثم الموصل فى سنة ٤٨٠/١٠٨٧ ٠ ولكن بعد موت ملكشاه ، نجد أن تتش أخو السلطان الذى كان يملك الشام ، يقتل آقسنقر هذا لعصيانه له فى سنة ٤٨٧/١٠٩٤ ٠ وقد كان ابن آقسنقر الوحيد عماد الدين زنكى صغيرا ، فلما كبر تمكن من استرجاع أملاك أبيه ، اذ أقطعه سلطان وقته محمود بن محمد بن ملكشاه ، بعض أراضى العراق كواسط والبصرة ، ثم ولاه الموصل وبلادا أخرى فى سنة ٥٢١/١١٢٧ ٠ وكان السلطان محمود قد سلم اليه ولديه : ألب أرسلان وفروخ شاه لتربيتهما ، ولهذا قيل لعماد الدين زنكى أتابك ، لأن الأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك ، كما عرفت أملاكه بالأتابكية ٠

والواقع ان هذا الأتابك كان يعمل لحسابه ، فأخذ يوسع فى أملاكه على حساب بقية الأتابكة الآخرين فى الجزيرة والشام ، وان أظهر أن البلاد التى فتحها لأميره ألب أرسلان بن محمود ، وأنه نائبه فيها ٠ فاستولى على حلب وغيرها من مدن الجزيرة ، وبعض بلاد الأكراد ٠ وأكثر من هذا تدخل عماد الدين فى تولية السلطان فى بغداد بعد موت محمود ، فكان مع مسعود بن محمد بن ملكشاه أخوه ضد الخليفة المسترشد ، الذى كان يؤثر بالسلطنة غيره من أمراء السلاجقة ٠ ولما ذهب عماد الدين لحصار الخليفة فى بغداد ، أرسل اليه الخليفة أحد قواده فهزمه ، فهرب ناجيا بنفسه فى سنة ٥٢٦/١١٣٢ ٠ ولكن بعد ذلك حينما قتل السلطان مسعود الخليفة المسترشد ، عاد عماد الدين الى مركزه الأول ٠ ويبدو أن طموح

عماد الدين الى ترقب موت مسعود ، ليخطب بالسلطنة لألب أرسلان – الأمير الذى رباه – كما يملك بغداد وسائر الممالك باسمه .

وثمة أمر آخر : هو أن عماد الدين طمع فى أخذ أتابكية دمشق الواقعة في وسط الشام ، وضمها الى أملاكه . فهذه الاتابكية ، التى أسسها طغتكين أو طغدكين أتابك دقاق بن تتش بعد موته ، حيث كان تتش أبوه ، هو الذى قتل آقسنقر أبا عماد الدين . وكانت هذه الاتابكية قوية فى عهد بورى بن طغتكين ، الذى قتله الاسماعيلية بالشام . وبعد بورى تولى ابنه اسماعيل ، واسترد أملاكا من التى أخذها عماد الدين ، الا أنه كان ظالما فحدثت مؤامرة من أحد مماليكه فقتلوه ، ولعلها أيضا باتفاق مع امه . فانقسم الأمراء على أنفسهم ، وولوا عليهم أميرا صغيرا هو أخوه محمود بن بورى ، حيث سيطر عليه معين الدين أنر مملوك جده طغتكين . ولكن محمودا قتل غيلة ، فولى معين الدين أخاه جمال الدين محمد ، وتزوج بأمه ، ليبقى على سيطرته . وقد أراد عماد الدين أن يستفيد من هذه الظروف القلقة ، وفكر فى ضم الأتابكية الشامية بالزواج من الخاتون أم محمود ، التى دعته ليأخذ بثأر ابنها . فقدم عماد الدين الى دمشق ، وحاصرها فى سنة ٥٣٤/١١٣٩ ، ولكنه لم يستول عليها بسبب أن معين الدين طلب المساعدة من الفرنج ، وأن جمال الدين كان قد توفى ، وعين معين الدين بعده مجير الدين بن جمال الدين .

كذلك كان هذا الأتابك متحمسا لحرب الصليبيين ، بحكم وجود أملاكه فى شمال الجزيرة وحلب ، ملاصقة لامارتى الرها وأنطاكية الصليبيتين القويتين ، وكان يرى أن الضرر كبير بوجود امارة الرها وسط بلاد الجزيرة قريبة من بغداد مركز الخلافة العباسية ، بحيث أن غارات الفرنجة منها عظم شرها ، وامتدت الى أقاصى بلاد الاسلام . فيذكر له المؤرخون انه كان لا ينقضى عليه

عام ، حتى يفتح بلادا من بلادهم ، بحيث اشتهر بالشهيد ربما لرغبته فى الاستشهاد . ولعل أهم انتصاراته عليهم ، هو فتحه مدينة الرها ، التى اعتبرت من أشرف المدن وأشهرها عند النصارى لكثرة قديسيها ، وذلك بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما فى سنة ٥٣٩/١١٤٤ . فلما دخلها قتل كل من فيها من الصليبيين ، وجمع رؤوس القتلى وبنى بها منارة اذن عليها ، ونكس صلبانها وأباد رهبانها ، ورتب العساكر الاسلامية . وبذلك خلص الاسلام من خطرها ، بحيث شبه الانتصار فيها بالانتصار فى غزوة بدر ، وبعدها لم يبق من دويلات الصليبيين غير ثلاث ، هى : أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس .

وقد انتشر خبر الاستيلاء عليها فى كل مكان حتى فى أوربا ، وذاع صيته دون بقية الأتابكة عند الصليبيين . وقد قدر ملك اليونان فى بيزنطة خطره وخرج فى جيوش كثيرة من اليونان (الروم) والأرمن والفرنجة ، بقصد الاستيلاء على حلب من أملاك عماد الدين ، واضطر عماد الدين الى طلب العون من بغداد ، وذلك لاعتقاده بأنه اذا ذهبت حلب لم يبق بالشام اسلام . ومع أن السلطان والخليفة لم يهتما اطلاقا بطلب عماد الدين ، فقد استطاع أن يرغم ملك اليونان على التقهقر ، واستولى على بعض الثغور بين الشام وأنطاكية ، لتقوية مركزه .

★ ★ ★

ولا ريب أن أسرة صلاح الدين قدرت فى الاتابك عماد الدين زنكى أطماعه وطموحه ، فعمدت الى ربط مستقبلها بعجلته . وقد كان هروبه بعد هزيمته فى حصار الخليفة ببغداد ، هو مبدأ المعرفة الأولى كما يؤكد ابن واصل فى كتابه : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، لأن أيوبا استضافه فى تكريت ، مع أن فى ذلك تحديا

للخليفة . فلما عادت الأمور الى نصابها ، عرف عماد الدين لأيوب وأهله هذا المعروف ، وخصوصا أنهم كانوا قد اضطروا لترك تكريت لأسباب غير واضحة ، ربما خوفا من غضب الخليفة ، فأخذهم فى خدمته بالموصل ، مما يدل على ان أقامتهم فى تكريت لم تطل بعد ولادة صلاح الدين . وحينما فتح بعلبك ، وهى مدينة قريبة من دمشق من جهة الساحل سلمها الى أيوب ، وجعله أميرا عليها فى سنة ١٣٤٩/٥٣٤ . ولا شك أن صلاح الدين ترعرع فى هذه المدينة. وان لم تكن لدينا تفاصيل عن طفولته أو فترة بلوغه . ومن المؤكد أن أباه أيوب أحسن تربيته ، فيصف ابن الأثير أيوبا بأنه كان له عقل ورأى وحسن سيرة . كذلك ليست لدينا معلومات مفصلة عن أيوب وأخيه شيركوه فى هذه الفترة ، ولعلهما كانا يشاطران عماد الدين فى حروبه ضد الصليبيين ، أو ضد الأتابكة السلاجقة الآخرين .

وقد بقى أيوب وأهله فى خدمة هذه الأتابكية ، حتى بعد قتل عماد الدين على يد غلمانه فى سنة ١١٤٦/٥٤١ ، اذ أسرع ابناه غازى ونور الدين الى الاستيلاء على أملاك أبيهما ، ولا سيما أنها قد خلصت لهما بقتل ألب أرسلان ، الذى كان عماد الدين يظهر أنه نائبه ، فأخذ الأول وهو الأكبر الموصل وبلاد الجزيرة ، واستولى الثانى على حلب . ولكن أطماع معين الدين أنر المسيطر على أتابكية دمشق ، نتيجة لموت عماد الدين ، دفعته الى مهاجمة بعلبك التى كان فيها أيوب ، فسلمها له أيوب ، وانتقل هو وابناؤه معه الى دمشق ، وأصبح أحد قواد هذه الأتابكية . ويذكر المؤرخون أنه سلمها له خوفا من أن ولدى زنكى لا يمكنهما انجاده ، لانشغالهما بتوطيد سلطانهما ، ولأنه عوضه عنها عشر قرى من بلاد دمشق . وعلى النقيض اتصل أخوه شيركوه بخدمة نور الدين صاحب حلب ، وصار مقدم عسكره ، واقطعه أيضا الاقطاعات بما فيها حمص .

ويظهر لنا هذا التصرف من جانب الأخوين غامضا ، فربما كان لهما اطماع خاصة فى السيطرة على الأتابكيتين ، بأن وزعا شخصيهما بينهما ، أو أنه على الأقل كان هناك تدبير سابق بين نور الدين وأيوب للسيطرة على أتابكية دمشق ، أو حتى لتفادى القتال فى الوقت الذى كانت هناك حملة صليبية جديدة تتجه من أوربا نحو الشرق .

وعلى كل حال نجد الأخوين يشاركان الأتابكيتين ، خطر الحملة الصليبية الثانية ، التى قامت من أوربا على أثر استيلاء عماد الدين على امارة الرها . وقد جاءت هذه الحملة الثانية بعد موت عماد الدين، بقيادة ملك فرنسا لويس السابع «Louis VII» وملك الألمان كونراد الثالث «Konrad III» ، فاخترقت جنودهما بلاد وسط أوربا ، واتجهت نحو القسطنطينية ، ولكن الترك السلاجقة فى آسيا الصغرى تمكنوا من القضاء على الجزء الأكبر من جيوشهما فى ١١٤٦/٥٤١ ، وبقى الملكان مع قلة وصلا بها بحرا الى أنطاكية . وهناك قام أمير أنطاكية الفرنسى بالمكائد ضد ملكه ، فرجع ملك فرنسا الى بلاده وبذلك لم تمس أملاك نور الدين وأخيه غازى . ولكن كونراد سار نحو أتابكية دمشق ، مع أن هدفه كان استعادة الرها ، حيث لحق به عندها ملك بيت المقدس ، وحاصراها سنة ١١٤٨/٥٤٣ . فاشترك أيوب مع معين الدين فى صده عنها ، كما جاء غازى ونور الدين لنصرتهما ، ولكن معين الدين أنر ، الذى خاف على ملكه من ولدى عماد الدين ، أرسل الى الفرنجة ، وصالحهم بتسليم بعض القلاع والمال .

هذه الحملة الصليبية الثانية ، ومصالحة معين الدين للفرنجة . جعلت نور الدين الذى أصبح أكبر الأتابكة الزنكيين ، بعد وفاة أخيه الأكبر غازى فى الموصل سنة ١١٤٩/٥٤٤ ، وتنازل أخيه

الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه فى الشام لقاء وراثته أملاك
أخيه غازى بالجزيرة ، يفكر جديا فى الاستيلاء على أتابكية دمشق ،
وضمها لأملاكه ، كما كان أبوه يريد من قبل • والذى جعله يعجل
بذلك ، هو استيلاء الفرنجة على عسقلان أكبر معاقل المصريين فى
الشام سنة ٥٤٨/١١٥٣ ، ولأنه قوى أملهم بعد ذلك فى أخذ دمشق،
وتابعوا الغارة عليها ، ولا سيما أن المملوك معين الدين أنر كان قد
توفى ، وضعف مجير الدين صاحبها ، ووعد الفرنجة بتسليم بعلبك •
ويبدو أن الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله هو الذى حث نور الدين
على تحقيق هذه الأطماع ، فمنحه تقليدا على البلاد الشامية ، وكذلك
المصرية ، التى كانت هى الأخرى تعانى الاضطرابات ، بسبب مقتل
الخليفة الظافر فى سنة ٥٤٩/١١٥٤ • وقد دبر نور الدين الأمر
بينه وبين أيوب فى دمشق عن طريق أخيه شيركوه ، بحيث يقول
المقريزى ان أيوبا عمل كثيرا فى أخذ دمشق لنور الدين ، فسلم
المدينة الى أخيه شيركوه لما حاصرها فى سنة ٥٤٩/١١٥٤ • فنقل
نور الدين اليها مركز حكمه ، بعد أن تركها مجير الدين الى العراق ،
وعين أيوبا حاكما عليها ، وشيركوه نائبا عنه ، وصلاح الدين رئيسا
لشرطته « الشحنجية » ، وكان قد بدأت تظهر عليه أمارات الذكاء
والشجاعة التى تعلمها من نور الدين • ومن المحقق أن أسرة صلاح
الدين ، تمكنت تماما فى دولة نور الدين ، وأن صلاح الدين بدأ
يدخل مسرح التاريخ •

★ ★ ★

وبينما كان نور الدين يوطد حكم دولته ، التى اتسعت من
حلب الى دمشق ، اذ جاءه شاور الوزير الفاطمى سنة ٥٥٨/١١٦٣ ،
طالبا النجدة والعساكر ضد ضرغام الذى طرده من الوزارة واستولى
عليها ، فاطمعه فى الديار المصرية ، ووعده بحصة من خراجها مقدارها
الثلث سنويا ، ويمنح جنده الاقطاعات ويقيمون فى مصر ، ويكون

متصرفا تحت أمره ونهيه • ويلاحظ المؤرخون أن نور الدين قد تردد
أول الأمر فى اجابة شاور الى طلبه ، بسبب توسط الفرنجة بينه
وبين الديار المصرية ، الا أنه قبل تحت الحاح شيركوه ، الذى كان
يرغب بشدة فى الذهاب على رأس الحملة الى مصر ، وربما يكون
الدافع على تحريض شيركوه لنور الدين ، أنه فكر فى تأسيس ملك
فيها لأسرته ، اذ يبدو أنه كان متفقا فى ذلك مع أخيه أيوب ،
بدليل اصطحاب صلاح الدين ، الذى لم يكن قد تجاوز خمسة
وعشرين عاما • وعلى النقيض يظهر أن صلاح الدين نفسه لم يكن
متحمسا للمغامرة فى مصر ، فيروى أنه قال : « خرجت مع عمى
كارها وأنا كمن يقاد الى المذبح » • ونحن نرى أن قبول نور الدين
لطلب شاور راجع الى الرغبة فى استعلام حقيقة أحوال مصر التى
وصلت الى الضعف ، وعلى الخصوص الى ما يمكن الحصول عليه من
الفوائد بتقوية المسلمين اذا ما اتحدت معه قوى مصر الوافرة الثراء
بالمال والرجال ضد الفرنجة ، اذ لا يبدو أنه كان يقصد وقتذاك
فتحها وضمها الى ملكه بالشام •

ويظهر أن شاور لم يكن يرغب فى حضور شيركوه
وصلاح الدين ، ولعله كان يظن أن نور الدين يكل قيادة الحملة
اليه ، ولكن أسقط فى يده لما جهز نور الدين عسكره من الترك
بقيادة شيركوه وسار لشغل الفرنجة بالغارات ، حتى يصل جيشه
سالما الى مصر ، فلما وصل شيركوه الى بلبيس شرقى القاهرة ،
خرجت عساكر البرقية المذكورة من قبل ضرغام بقيادة أخيه
ناصر الدين ، لقتال الجيش التركى ، ولكن عسكر شيركوه أجبروه
على التقهقر نحو القاهرة : فلما دخل جيش شيركوه القاهرة خرج
ضرغام لملاقاة شاور ، وحدث قتال عنيف اشترك فيه أول الأمر
الجند المصريون والسودانيون ـ وهم من طوائف الجيش الفاطمى ـ
خوفا من الغز (أى الترك) القادمون مع شاور ، فانتصروا عليهم فى

القاهرة ، وبقى ضرغام أياما يقاتلهم . ولكن كره الجند الفاطميون ضرغاما لأمور منها قتله قوادهم « أمراءهم » ، وأعيان البلاد ، اذ كان يأخذ بالظنة حتى بين أصحابه وأفراد أسرته ، جعلهم ينحرفون عنه ، مما دعا الخليفة العاضد بدوره الى التخلى عن تأييده له ، فاستطاع شاور بمماليكه وعربانه أن يهزم ضرغاما ويقتل أخاه . وبعدها تولى شاور الوزارة للخليفة العاضد ثانية وتلقب بالملك المنصور ، وكتب العاضد سجلا له بتفويض الوزارة ، وذكر أنه ما اختاره الا لحنكته فى السياسة والتدبير ، ودعاه الى المحافظة على دعوة الفاطميين ، كما قلد ابنه الوزارة نيابة عن أبيه .

فلما حصل شاور على الوزارة ظهرت منه امارات الغدر بجيش الترك ، الذى كان يقيم بظاهر القاهرة ، وأرسل الى شيركوه يطلب منه الرجوع الى الشام . فامتنع شيركوه ، وأسرع الى بلبيس ، بناء على اشارة صلاح الدين — الذى بدأت تظهر كفاءته الحربية أيضا — للتحصن بها . فأخذ شاور ، الذى رأيناه من قبل قد استدعى الترك ووعدهم بامتيازات ليحتفظ بمنصب الوزارة ، يعمل على الاتصال هذه المرة بالفرنجة ، ويدعوهم الى اخراج جند شيركوه ، ووعدهم بمال كثير اذا رحل عسكر نور الدين . ولعل شاور كان يستهدف من وراء ذلك ، أن يستفيد من نزاعهما بالانفراد بالبلاد . فبادر الفرنجة اليه ووجدوا فى دعوته الفرصة المناسبة ، لا سيما أنهم كانوا قد عرضوا مساعدتهم من قبل على ضرغام — ويسمونه Dargam اذ قدروا خطورة الاتحاد بين مصر ونور الدين فى الشام ، فيقول ابن واصل : انهم قد خافوا خوفا شديدا اذا ما تحقق ذلك ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل . فاجتمعت جيوشهم بقيادة ملك بيت المقدس المسمى أماريك «Amalricus» ، والمعروف أيضا بعمورى «Amauri» ، ويسميه العرب غالبا فى كتبهم مرى ، وحاصروا شيركوه وصلاح الدين فى بلبيس ، يساعدهم عسكر

شاور من العربان والسودان ، فقاومهم جيش شيركوه حتى أعياهم مدة ثلاثة أشهر ، وانتهى الأمر بعقد اتفاق بمقتضاه خرج شيركوه والصليبيون من مصر ، وخاصة أن نور الدين أخذ كعادته فى الاغارة على أطراف أملاكهم ، ليخلص جيوشه من هذا الحصار ، وأرسل بالأعلام التى غنمها منهم ، لتنشر على أسوار بلبيس مما أزعجهم ، وجعل عمورى يسرع بالعودة الى بلاده . وهكذا انتهت حملة شيركوه وصلاح الدين الأولى على مصر ، ومدح الشاعر المعروف عمارة اليمنى شاور على حسن سياسته ، كما مدحه شعراء آخرون .

ولكن شيركوه ، الذى رأى ضعف حالة مصر ، بحيث وصفها بأنها بلاد بغير رجال ، أخذ يحرض من جديد نور الدين لارساله على رأس حملة ثانية ، وقبل نور الدين ذلك . فخرج شيركوه فى سنة ٥٦٢/١١٦٧ ، ومعه هذه المرة أيضا ابن أخيه صلاح الدين ، ودخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد ، ثم نزل الجيزة قبالة مصر (أو الفسطاط) ، حتى لا يحاصر فى بلبيس مرة أخرى . فلما وصل جيش شيركوه ، أرسل شاور ثانية الى الفرنجة يستنجد بهم ويعدهم بالمال ، فأتاه عمورى الى الجيزة ، وأرسل رسله الى قصر العاضد للاتفاق على المبلغ الذى يدفع له لقاء اخراجه شيركوه ، حيث تركوا لنا وصف أبهة قصر العاضد . فحاربهم شيركوه وهزمهم حين حاولوا عبور النيل على جسر أقاموه ، ولكن بسبب قلة جنده اتجه الى الصعيد ، فلما تابعوه هزمهم بفضل مهارة صلاح الدين فى مكان اسمه البابين جنوبى المنيا الحالية ، ونجا عمورى بحياته بمعجزة ، وكان هذا من أعجب الانتصارات لقلة عسكر شيركوه ، الذين هزموا شاور والصليبيين معا ، اذ صمم جنده ألا يسلموا مصر للكفار . ثم سار شيركوه الى الاسكندرية ، التى رفض أهلها وأعيانها أن يسلموها الى شاور لأن معه الصليبيين ،

وسلموها لشيركوه وكانوا قد راسلوه من قبل ، فتركها شيركوه
لابن أخيه صلاح الدين ، وعاد هو بقسم من جيشه الى الصعيد ،
ربما ليشتت قوى أعدائه • ومن الطريف أن نذكر أن تسليم
الاسكندرية الى شيركوه راجع أيضا الى أن أهلها كانوا من السنة
الذين يكرهون التشيع ، وذكر هذه المعارضة المبكرة للفاطميين نجدها
فى الوثائق المعروفة بالسجلات المستنصرية ، فكان كل ثائر على
الخلافة الفاطمية يلتجىء اليها • فحاصرها شاور حوالى أربعة أشهر
تناصره مراكب الصليبيين ، حيث كانوا يتوقون للاستيلاء على هذا
المرفأ الهام على البحر الأبيض، فكافح عنها صلاح الدين وأهلها كفاحا
شديدا ، حتى انه قال عند ذكر هذه الحقبة : « والله لو أعطيت ملك
مصر ما سرت اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ، ما
لا أنساه أبدا » • وقد سأل شاور أهل الاسكندرية أن يسلموه
صلاح الدين ، ويرفع عنهم الضرائب ، بخاصة المكوس – ضريبة
الأسواق البغيضة – الا أنهم رفضوا أن يسلموا المسلمين الى الفرنج
على حسب قولهم • عندئذ سعى شاور الى الصلح وقبله شيركوه
لسوء موقف جيشه ، وليخرج الصليبيين من مصر بأى ثمن ،
فاتفق على أن يتركها لقاء مبلغ من المال ، على أن يخرج
الصليبيون أيضا ، ولا يتسلمون أية قرية ، وأن تعاد الاسكندرية
الى المصريين • ومع تظاهر الصليبيين بقبول ذلك ، الا أنهم وافقوا
لقاء خروجهم من مصر ، على أن يكون لهم بأبواب القاهرة حامية
« شحنة » ، وأن يدفع لهم شاور بعض المال • فوافق شاور على
ذلك ، حيث كان يرى أن الأموال وحدها هى التى تسيطر ، دون
المبادىء •

ومن المحقق ، أن هذا التدخل أثبت بوضوح أن مصر لم تعد
فى أيدى الفاطميين ، وانما أصبحت بيد القوتين المتسابقتين عليها ،
وهى الدولة الغزية (التركية) النورية ، وفرنجة بيت المقدس ،

وبالأحرى فى يد شاور الوزير المستبد ، الذى كان لا يهمه غير
الاحتفاظ بمنصب الوزارة • ومما زاد الطين بلة ، أن الصليبيين
صمموا هذه المرة على سباق جيش نور الدين فى الوصول الى مصر
بغية احتلالها ، مخالفين بذلك سابق عهدهم • ولكى يدير عمورى
حملته على مصر سعى الى الاتفاق مع البيزنطيين ، وتزوج ابنة أخى
ملك بيزنطة مانويل «Manuel» (١١٤٣ – ١١٤٨ م) ، للتربع
معه على عرش مملكة بيت المقدس • وقد ترك لنا المؤرخ الصليبى
وليم الصورى «Willeromo Tyrensi» ، صورة للاتفاقية التى
وقعها بنفسه نيابة عن عمورى : فقد اتفق الطرفان على أن تكون
رياسة الحملة لعمورى ، وأن يطيع القائد البيزنطى فى كل ما يأمر
به • ومع أن عمورى نفسه كان يفضل انتظار وصول الجيش
البيزنطى ، الا أن فرسان مملكته ، وذوى الرأى فيها ، أشاروا عليه
بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم ، والتقوى بها فى نزاعهم مع
نور الدين ، اذ كان اعتقادهم أن فتحها سيكون سريعا ، بسبب أنه
كان لهم بأبواب القاهرة حامية ، وأنهم تحكموا فيها • فأسرع عمورى
على رأس الفرنجة بالدخول الى الريف المصرى شرقى الدلتا أو
ما يعرف بالحوف الشرقى فى سنة ٥٦٤/١١٦٨ ، فارتكبت جيوشه
فى بلبيس – أهم مدن الحوف – فظائع تذكر بما حدث عند فتح
الفرنجة بيت المقدس ، فكانوا يقتلون الرجال والنساء والشيوخ ،
مما يدل على نيات الغزو الحقيقية عند الفرنجة هذه المرة •

خاف شاور الفرنجة ، ولا سيما أنه أرسل الى عمورى يسأله
عن سبب مسيره ، فاعتل له بأن هذا هو رأى الفرنجة بالشام ،
وأنه يريد بعض المال • عندئذ قدر شاور نياته وقرر مقاومته ،
فجمع جالية الفرنجة فى مصر ، وقتل منهم جماعة كبيرة ، وحفر
خندقا وبنى حصنا ، وجعل الفقهاء يحضون الأهالى على القتال ، ثم
أحرق مصر أو الفسطاط ، وأمر أهلها بالهجرة الى القاهرة ، بقصد

عرقلة زحف الفرنجة ، وهى العاصمة القديمة التى أنشأها عمرو بن
العاص عند فتح العـرب مصر ، وازدهـرت ـ علـى حسب وصف
الرحالين ـ فى جنوب القاهرة العاصمة الجديدة للفاطميين ، بحيث
توافرت فيها جميع وسائل الحياة ، وفاضت أسواقها بالمنتجات التى
تأتيها من كل أجزاء الدنيا ، الا أن المجاعـات والفتن التى حـلت
بالدولة الفاطمية فى عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء ، كانت
ضربة قاصمة لازدهار هذه المدينة ، فتلاشت أهميتها ، كما تلاشت
أحياؤها الشمالية مثل العسكر والقطائع . ويذكر المقريزى أن شاور
اسـتخدم فى حريق مصر أو الفسطاط عشرين ألف قارورة نفط ،
وعشرة آلاف مشعل نار ، وقد ظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين
يوما ، وكان الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، بحيث أن هـذا
الحريق أطاح بجميع عمائر المدينة ، وأحرق جانبا من جامعها العتيق
(جامع عمرو) ولا تزال آثار هذا الحريق موجودة الى وقتنا الحاضر
فى التلال المعروفة بالكوم أو الكيمان فى منطقة مصر القديمة . وقد
أوقف حريق الفسطاط تقدم الفرنجة فى البلاد ، فحاصروا القاهرة
وضربوها بالمجانيق ـ وهى من أدوات الحصار لقذف الأحجار والنار ـ
الا أن أهلها ، قاوموهم بحماس شديد ، أشار اليه معظم المؤرخين .

قدر نور الدين ـ هو الآخر ـ الخطورة المترتبة على تحركات
الفرنجة باحتلال مصر ، فأسرع بارسال شيركوه ومعه صلاح الدين
على رأس حملة ثالثة ، وكان ينـوى أن يذهب بنفسـه . ويورد
المؤرخون أسبابا أخرى لارسال هذه الحملة ، منها ، أنها أرسلت
بناء على طلب الخليفة العاضد ، الذى أرسل الى نور الدين شعور
نسائه ، وكتب اليه يستصرخه ويقول : « أدركنى واستنقذ نسائى
من أيدى الفرنج » ، أو بناء على دعوة الوزير شاور نفسه الذى قدر
هو الآخر خطورة الموقف ، أو بناء على دعوة أهل مصر ، الذين كانوا
يراسلون نور الدين فى أثناء الحصار . وعلى كل حال لا نستبعد

أن يتعاون المسلمون على اختلاف مذاهبهم ضد عدوهم الصليبى .
فلما سمع الصليبيون بتحرك عساكر نور الدين ، ووجدوا أنفسهم
فى هذه المرة على عكس المرات السابقة مضطرين الى قتال عساكر
مصر والشام موحدة ، قبلوا الصلح مع شاور ، الذى عرض عليهم
مائة ألف دينار ، على أن يرد اليهم بقية مليون دينار أخرى فيما
بعد . فلما قرب جيش نور الدين من القاهرة ، رحل الفرنجة عنها ،
وكان هذا على حد تعبير ابن واصل المؤرخ : من أجل الفتوح وأعظمها،
اذ لو استولى العدو ، لعنه الله ـ على الديار المصرية ، لاستولى على
سائر الخطة الاسلامية .

ويظهر أن حيل شاور فى سبيل الاحتفاظ بمنصب الوزارة
لم تكن قد انتهت ، فاراد تدبير مؤامرة لقتل شيركوه ومن معه ،
واخراج جيشه من مصر . وربما كان من الممكن أن ينجح فى تدبير
ذلك ، الا أنه نسى أن يقدر حقيقة كره المصريين له ، وأثر ذلك فى
قلب خططه . فهؤلاء رأوا فى مواقفه السابقة فى طلب العون من
الصليبيين تهديدا هائلا لبلدهم وخيانة كبرى للاسلام ، حتى انهم
عنفوه فى سبيل ذلك . ونجد أن جماعة منهم على رأسهم شخص
اسمه ابن الخياط ، يسعون الى أخذ الوزارة منه ، ولكن شاور استطاع
اخماد ثورتهم ، واستبد بالمصريين . وقـد رأينا أن هزيمته هـو
والصليبيين فى حملة شيركوه الثانية ، ترجع على الخصوص الى أن
المصريين خذلوه ، حيث سبق ذكر تسليم أهل الاسكندرية مدينتهم
لصلاح الدين ، وأن شاور لم يكن يعتمد فى محاربة شيركوه فى
واقع الأمر الا على طائفة من جنده الخاصة ـ العربان والسودان ـ
اذ جرى وزراء مصر منذ عهد مبكر على تكوين طوائف خاصة لهم من
العسكر . وقد زاد كره المصريين له بسبب سوء سياسته بحرق مصر
أو الفسطاط ، ففقد كثير منهم بيوتهم ومتاعهم ، وبقيت مصر مدة
لا يسمع فيها أذان ، ولا يوقد فيها مصباح ، كما أنهم بعد هجرتهم

الى القاهرة لقوا شظف العيش ، وأقاموا أثناء حصارها مطروحين فى المساجد ، والحمامات والأزقة ، وعلى الطرقات بعيالهم وأولادهم . فلما جاء عسكر نور الدين ، أحضر شيركوه أعيان المصريين وأظهر لهم أسفه لمصابهم ، وسفه رأى شاور فى احراقه الفسطاط . ويقول ابن تغرى بردى – وهو مؤرخ مصرى – ان الأمراء المصريين فى الجيش الفاطمى ، اتفقوا على قتله .

ومع ذلك ، فان الذى قتله صلاح الدين وشيركوه ، لتحقيق أطماعهما فى مصر ، بعد أن علقت مخالبهما بالبلاد . وقبل أن يقتلاه أخذا اقرارا من العاضد ، الذى كان شاور قد استبد به طول فترة وزارته مثل بقية وزراء التفويض ، بأنه هو الذى طلب قتله لخيانته للمسلمين ، ومماألأته للأجنبى . فنجد صلاح الدين يشرف بنفسه على تدبير المؤامره لأنه لا يجسر عليها غيره ، وذلك فى أثناء زيارة شاور لشيركوه ، الذى كان مضطرا الى أن يظهر له الود ، وان تعمد شيركوه الخروج لزيارة ضريح الامام الشافعى ، فقبض صلاح الدين على شاور وكتفه ، وأخذه ليقتله . ثم لما دخل ولد شاور واخوته الى القصر الفاطمى معتصمين قتلوا ، وربما كان ذلك أيضا بتحريض من شيركوه وصلاح الدين . وهكذا انتهت حياة هذا الوزير الخائن ، الذى كان همه الاحتفاظ بمنصبه ، ففرح الناس فرحا عظيما لموته .

وقد كان قتل شاور ازالة للعقبة أمام شيركوه فى تحقيق أطماعه فى مصر : فقد أخذ مكانه فى الوزارة ، اذ لم يكن العاضد يستطيع أن يرفض طلبه لضعفه ، ولقبه بالملك المنصور وهو نفس لقب شاور السابق ، وخرج له سجل طويل أورده لنا القلقشندى يعتبر من الوثائق الهامة ، فقد أصبح شيركوه : السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى

دعاة المؤمنين ، أى أنه سيطر على كل شىء فى الخلافة الفاطمية بما فيها من جيوش وقضاةودعاة المذهب الشيعى . ونلاحظ أنه تسمى بسلطان الجيوش ، وليس بأمير الجيوش لقب الوزراء السابقين ، ربما لأنه كان مسيطرا على جيش الخليفة الفاطمى والجيش التركى ، الذى جاء به من الشام . وقد احتفظ العاضد لنفسه اسميا بحق توليه الدعاة والقضاة ، ولأن شيركوه كان سنى المذهب ، فان سجلات توليتهم كانت تخرج بالضرورة من ديوان الانشاء باسم الخليفة ، وان كان شيركوه فى واقع الأمر قد حجر على تصرفات العاضد كلها .

ولكن شيركوه توفى أو قتل بالسم ، ولم يمكث فى الوزارة أكثر من شهرين ، فتولاها بعده ابن أخيه صلاح الدين ، وتلقب بالملك الناصر ، وان غلب عليه اسم السلطان دون أن يتلقب به ، مثل وزراء الفاطميين قبله ، وذلك فى ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤/ ٢٦ مارس ١١٦٩ . وقد كتب له العاضد سجل الوزارة « منشور » بخط يده ، مع أن الخلفاء الفاطميين لا يكتبون الا نادرا ، ورد فيه : « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله » ، واحتوى على تخويله نفس السلطات ، التى خولها لعمه شيركوه بالسيطرة على الجيش والقضاة والدعاة ، فخرج سجله فى قماش أبيض ، وألبسه العاضد أمام جمع عظيم من موظفى الدولة خلعة الوزارة فى يوم مشهود ، وهى جميعها بيضاء شعار الفاطميين ، وتتكون من عمامة لها طرف « ذؤابة » زى أمراء مصر « القواد » ، وثوب مطرز بالذهب – لعله دراعة وهى ثوب قصير مشقوق من أمام محلى بعرى وأزرار – وجبة بطراز من الذهب ، وعقد جوهر من زى وزراء مصر ، ورداء يلقى على الكتف « طيلسان » زى القضاة الفاطميين ، فضلا عن خيل وسروج وأشياء أخرى .

وقد أثير حول تولية صلاح الدين الوزارة أقوال كثيرة ، منها : انه تولاها نتيجة لتوصية سابقة من شيركوه ، أو أن العاضد منحه اياها لظنه أنه أصغر القواد « الأمراء » النورية سنا ، ليكون تحت يده ، اذ لم يكن عمر صلاح الدين يزيد عن اثنتين وثلاثين سنة ، وأنه أحس أنه مثل شيركوه له طموح قد يستغله لمصلحته فى معارضة نور الدين ، وان كان سجل التولية يقول : انه اختاره لأنه جمع بين حكمة المشيب ، ومضاء الشباب ، أى لقوة شخصيته ، التى يبدو أنه لم يكن يوجد أقوى منها بين أمراء نور الدين بعد شيركوه ٠ ونحن أيضا لا نستبعد أن يكون العاضد قد ألزم بتوليته ، كما ألزم بتولية عمه من قبل ، بناء على اتفاق أغلبية الأمراء النورية ، فهو لا يلبث أن يكون معه كالمحجور عليه ، لا يتصرف فى الأمور الا بعد مشورته ٠

وبتولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية ، فتحت صفحة جديدة فى تاريخ مستقبله الباهر ، اذ أنه ــ فى مصر ــ ظهر ما كمن فى شخصيته من صفات السياسة والحنكة ، كما أنه أصبح أبرز فرد فى أسرته ، بل أبرز من أبيه أيوب نفسه ٠

الفصل الثالث

قضاؤه على الخلافة الفاطمية ٠

ومن المؤكد أن صلاح الدين بعد توليته وزارة العاضد ، وضع نصب عينيه أن يقوم بدور رئيسى فى سياسة المسلمين ، اذ لا يذكر المؤرخون له قبل ذلك ظهور أطماع مبكرة ، وانما كان يسير وراء عمه شيركوه وهو كاره فى الغالب ، كما يروون تعففه عن التعيين فى الوزارة بعده ٠ ونحن لا نستبعد تولد الطموح عنده الى السؤدد والرياسة ، وقد أحس بأن الأقدار وضعته فى وزارة العاضد الضعيف ، لترسم له بيدها طريقه الذى عليه أن يشقه ، فضلا عما شعر به فى نفسه من كفاءة حربية وسياسية ، منذ أن قدم مع عمه فى حملات مصر ٠ ويمكننا أن نجزم بأن أهداف صلاح الدين كانت تتلخص فيما وضح أمام عينيه : من تحقيق وحدة المسلمين ودفع خطر الصليبيين ، اذ اليه والى عمه يرجع الفضل فى أن مصر بقيت للمسلمين ٠

وكخطوة أولى نحو طموحه ، قرر ضرورة القضاء على الخلافة الشيعية ، وعودة المصريين الى المعسكر السنى حتى يتمكن المسلمون فى الشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين ، الذين استفادوا من هذا التشتت كما رأينا ، وشارك هو بنفسه فى وقف حملاتهم ٠ يضاف الى ذلك أن عقيدة صلاح الدين المذهبية كانت سنية ، ولم

يكن عنده باعث دينى على أن يؤمن بأحقية الخلافة الفاطمية وانتسابها الى بيت النبى كما تدعى ، أو بمبادئها الشيعية حتى يبقى عليها · كذلك كان نور الدين ، وهو الذى أرسله وعمه الى مصر ، مثل بقية الترك السلاجقة متعصبا للعباسيين ، فكتب الى صلاح الدين بضرورة قطع الخطبة عن اسم العاضد ، وجعلها للخليفة المستنجد بالله العباسى ، فضلا عما يترتب على ذلك من خضوع مصر لسلطانه مباشرة · أما الخليفة العباسى فانه كان ينتظر بفروغ صبر الغاء خلافة الفاطميين أعداء بيته ، والخطبة له فى أرض مصر وما يتبعها من أملاك ، حتى انه كتب فى ذلك لنور الدين ·

ولما شرع صلاح الدين فى الغائها ، أضطر الى التمهل الى الرغم من الحاح نور الدين وعتاب الخليفة العباسى ، لأنه لما اختبر وقع الغائها بين أعيان المصريين وجد ميلهم صريحا لهذه الخلافة العلوية ، ووجد أنه لو قام به سريعا لقامت ضده فتنة لا تتدارك نتائجها · ويجرنا هذا الى أن نتكلم عن مذهب المصريين حينما جاء صلاح الدين لمصر ، فنعرف أن المصريين منذ عهد مبكر فى عهد الأمويين تحول كثير منهم من النصرانية الى الاسلام ، بحيث أن عامل عمر بن عبد العزيز على مصر كتب الى خليفته يقول : «ان أهل الذمة أسرعوا الى الاسلام » ، كما نجد فى كتب المؤلفين أسماء أئمة المجتهدين من المصريين ، وبينهم فقهاء من الطبقة الأولى من التابعين ، وما جاءت الدولة الطولونية الا حتى كانت الغالبية العظمى منهم قد تحولت الى الاسلام · وقد كان اسلام المصريين فى أول الأمر على مذهب الخلافة المسيطرة آنذاك ، وهو المذهب السنى ، الذى يتمثل فى اعتناقهم فروعه المختلفة · وكان أول مذاهب السنة التى انتشرت بين المصريين ، مذهب مالك بن أنس (ت ١٧٩ / ٧٩٥) ، وذلك بسبب توافر أصحابه الذين جاءوا لمصر ، ولدينا أسماء فقهاء مالكية كثيرون من بين المصريين · فلما جاء مصر محمد بن ادريس الشافعى

(ت ٢٠٤ / ٨١٩) ، واستقر بالفسطاط ودفن بها بالقرب من المقطم ، خص بعلمه أهل مصر ، ثم تفرق مذهبه من مصر فى سائر البلدان ، وأصبحت غالبية مسلمى مصر من أتباعه ، بحيث طغى فى انتشاره على مذهب مالك ·

ومع انتشار المذاهب السنية فى مصر ، فان ذلك لم يمنع المصريين منذ وقت مبكر من حب آل على والتشيع لهم ، حتى أضطرت الخلافة العباسية عدوة العلويين الى اخراج آل أبى طالب من مصر الى العراق ، واستتر من كان على رأى الشيعة من المصريين· فلما قامت الخلافة الفاطمية بالمغرب ، عملت على نشر مذهبها الشيعى بين المصريين عن طريق دعاتها ، ونجحت فى تحويل بعضهم ، فكان لها بمصر شيعة يكاتبون الخلفاء بالمغرب ، فكتبوا الى المعز لدين الله – وهو الخليفة الذى فتح مصر – يقولون : « اذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الدنيا كلها » ، وهم يعنون بالحجر الأسود كافورا أمير مصر من قبل العباسيين ، بما يرجع أن فتح الفاطميين لمصر ، كان بناء على دعوة من المصريين · وبعد دخول الفاطميين مصر ، كتبوا لأهلها أمانا أعلنوا فيه احترامهم للمذهب السنى ، الذى كان مذهب غالبية المصريين فى ذلك الوقت ، بحكم أن الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة فى رأيهم · وفى أيام الخليفة الفاطمى الثانى فى مصر العزيز بالله ، بدأت الخلافة الفاطمية وكانت قد استقرت أحوالها ، فى دعوة المصريين دون اجبار الى مذهبها ، عن طريق شرح نصوص التشريع الشيعى ، فعينت لهذا الغرض خمسة وثلاثين فقيها بالجامع الأزهر ، الذى بدىء فى بنائه منذ أيام المعز ، كما كان وزراء الخلافة وقضاتها يقرأون شروحا من تأليفهم عن التشريع الشيعى · وكان المصريون يقبلون على سماع هذه الشروح الفقهية حتى انه قتل من شدة التزاحم على سماعها فى احدى المرات أحد عشر رجلا ·

وفى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى الثالث بمصر ، وضع نظام دقيق لتحـــويل المصريين ، وبخاصـــة الموظفين منهم ، الى المذهب الرسمى ، اذ كان لا بد لكى يبقوا فى وظائفهـم أن يكون لهم على الأقل ميول شيعية · فعين الحاكم للدعوة الفاطمية ـ أو ما عرف أيضا بالدعوة الهادية ، لأنها تدعو الى المذهب الصحيح ـ من يشرف عليها فى القاهرة والأقاليم ، فلأول مرة ظهرت بين وظائف الخلافة الكبرى وظيفة داعى الدعاة ، التى تأتى فى المرتبـــة بعد قاضى القضاة ، حيث كان له مجلس يتكون من اثنى عشر نقيبـا ـ هم رؤساء الدعوة ـ ودعاة يتبعونهم وينتشرون فى جميع أجزاء مصر وبلاد الخلافة التابعة لها كنواب القضاء حتى ان أقاليم الدعـــوة عرفت بالجزائر لانتشارها · وقد ترتب على تنظيم الدعوة أنها لم تعد شرحا للتشريع فحسب ، وهو ما عرف « بالظاهر » ، وانما اشتملت أيضا على ما عرف بالدعوة (الباطنية) ، أى تأويل نصوص القرآن والحديث ، بمعرفة ما وراء معانى الألفاظ ، بقصد الوصول الى مبادىء الدين الصحيحة ، وتوطيد حق الامامة الفاطمية بطريقة ايمانية غير قابلة للنقاش ، بحيث تحولت نصوص القرآن والحديث الى أدوات طيعة ، لتأييد امامتهم ومذهبهم · وبعد أن كانت الدعوة دعوة واحدة علنية ، أصبحت درجات عددها سبع أو تسع درجات ، دعوة بعد دعوة ، ودخلتها آراء فلسفية وجدلية ، كما أن المستجيب لم يعد مجرد مستمع ، وانما كان عليه أن يحلف يمينا للمذهب « العهد » ، مؤداه ستر كل ما سمعه ، وألا يقدم مساعدة لأعداء الفاطميين ، كانت هذه الدعوة الباطنية تدرس على الخصوص فى دار العلم أو الحكمة ، التى اضيفت للجامع الأزهر ، وفتحت أبوابها فى عهد الحاكم سنة ٣٩٥ / ١٠٠٥ · وكانت نتيجة هذا التنظيم المعقد للدعوة الفاطمية ، أنه فى عهد المستنصر ، الخامس من الخلفاء فى مصر ، أصبح المذهب السنى غريبا ، وانتشر المذهب الفاطمى على نطاق واسع بين المصريين ·

لذلك عمل صلاح الدين على محاربـة الدعـوة الفـاطمية ، وساعده على ذلك أنه كان له الاشراف على القضاء والدعوة معا ، اذ كان من ألقابه كوزير تفويض للعاضد : كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، مما أطلق يده · حقا ان الخليفة العاضد منذ أيام وزيره شيركوه وهو غير فاطمى ، كان يتكفل بتوليـة القضاة والدعاة كما ذكرنا ، ولكن يبدو أنه فى وزارة صلاح الدين ، لم يعد له حتى هذه السلطة الدينية : فعزل صلاح الدين قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم ، وشرد الدعاة ، وألغى مجالس دعوتهم ، وأزال أصول المذهب الشيعى ، مثل الأذان بحى على خير العمل بدلا من الأذان بحى على الفلاح ، والجهر بالبسملة فى الصلاة ، ومنع صلاة الضحى والتراويح ، والصيام على أساس أن شهر رمضـان ثلاثين يوما ، بل حذف من النقش الدينى على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية : « على ولى الله » · ثم أخذ فى ابراز ان نسب الفاطميين غير صحيح ، وأنهم من نسل المجـوس أو اليهود ، وان زعموا أنهم علويون ، حتى لا ينسبوا الى بيت النبى · كذلك منع صلاة الجمع بالجامع الأزهر وبجامع الحاكم ، حيث استمر هذا المنع مائة عام الى ان جاء المماليك ليعيدوها الى الجامعين ، كما أنه كان يخطب لنور الدين بعد العاضد فى الجوامع الأخرى ·

وفى نفس الوقت جعل صلاح الدين همه عودة مذهبى السنة : الشافعى ومالك الى انتشارهما الأول قبل مجىء الفاطميين · ويجب أن نقرر أن الفاطميين على الرغم من حرصهم على نشر مذهبهم ، فانهم لم يقضوا على شعائر المذاهب المخالفة ، حيث صرح القلقشندى بقوله : ان مذهبى مالك والشافعى ، كانا موجودين فى عهد الفاطميين ظاهرى الشعار · وليقوم بذلك أخذ فى بناء مـدارس لتدريس المذهبين السنيين ، ليس فقط فى القاهرة ، وانما أيضا فى جميع أنحاء القطر ، مع أنه لم يكن المذاهب غير الشيعيـة شىء من

المدارس ، مقتديا بذلك بنور الدين ، الذى أكثر من بناء المدارس بالشام . ويبدو أن صلاح الدين وشيركوه ، كانا يرعيان المذهب الشافعى ، ربما لأنهما كانا من معتنقيه ، أو تقربا للمصريين ، الذين كانت غالبيتهم من أتباعه قبل مجىء الفاطميين ، أو لأن الفاطميين أنفسهم كانوا على العكس يرعون مذهب مالك دون الشافعى ، ومن سألهم الحكم به أجابوه . وقد رأينا شيركوه يزور ضريح الشافعى يوم دبر مقتل شاور ، وبنى صلاح الدين حول الضريح مدرسة ، يخيل لمن يطوف عليها انها بلد مستقل ، وأنه جعل الحكم فى اقليم مصر كله لقضاة الشافعية وحدهم . ويذكر المقريزى نتيجة لذلك ، أن تظاهر الناس فى مصر بمذهبى مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة .

ثم خطا خطوة أخرى ترمى الى اضعاف نفوذ حاشية القصر ، وبخاصة انه الوزير المتحكم الذى لا يرد أمره فى شىء . فقد كان نفوذها كبيرا فى وقت العاضد ، تتدخل فى شئون السياسة ، بحيث تمكنت من قتل الوزير المستبد طلائع بن رزيك كما ذكرنا ، ولا غرو فهى فرقة كبيرة ، لم تعرف مصر لها مثيلا فى قصر اسلامى من قبل ، اذ يقول المقريزى : ان عددها عند سقوط دولة الفاطميين ، بلغ ثمانية عشر ألفا . فكانت تتكون من موظفين من كل نوع ولون ودين يقومون بأعمال القصر المختلفة ، وان تميزت بينهم طبقة من العبيد البيض والسود على السواء أغلبها من أصل أجنبى من الصقالبة الأوروبيين أو السودانيين ، خصيان وغير خصيان ، يعرفون «بالأستاذين» جمع أستاذ ، وهى كلمة من أصل فارسى ، تعنى عبيد القصر الذين يقومون بأعماله المختلفة . وقد كان يشرف على هذا الجهاز الضخم فى القصر رؤساء لهم يعرفون «بالأستاذين» المحنكين ، لتميزهم عن غيرهم بزى الحنك ، وهو أن يمر طرف العمامة تحت الحنك ، ليصعد من الجهة المقابلة ، ويلتف

من جديد حول الرأس ، فكان هؤلاء يكونون « الخاصة » للخليفة ، ولهم نفوذ كبير اذ كان الواحد منهم له حق التلقب بلقب الأمير ، كما ان الخليفة والوزير يشتركان معهم – أحيانا – فى لبس زيهم المميز ، مما يدل على خطورة مناصبهم .

فنجد صلاح الدين يضايق أهل القصر ، يستبد بهم استبدادا شديدا ، ويعمل على اغتيال كبيرهم مؤتمن الخلافة جوهر ، وكان خصيا أسود من الاستاذين المحنكين ، بحجة أنه تآمر على قتله ، ومالأ الأجنبى بأن استدعى الفرنجة ، كما فعل شاور . ومما يدل على نجاح صلاح الدين فى توطيد سيطرته على قصر الخليفة الفاطمى بعد قتله مؤتمن الخلافة هذا ، قول المقريزى : ان جوهرا هو فاتح مصر ، وخراب الفاطميين بسبب جوهر . وبعده عين صلاح الدين للقصر الفاطمى خصيا أبيض اللون من أتباعه ، لعله تركى أو يونانى ، كان شيركوه قد اعتقه ، اسمه قراقوش – بمعنى الطائر الأسود – ولقبه بهاء الدين ، بأن جعله زماما للقصر ، أى مشرفا على شئونه . فأشرف قراقوش على كل أمور القصر الفاطمى ، بحيث أصبح لا يجرى فيه صغيرة ولا كبيرة الا بأمر صلاح الدين . يضاف الى ذلك أن صلاح الدين صادر مخصصات العاضد ، من المال والخيل والرقيق ، ولم يبق عنده غير فرس واحد طلبه منه . كذلك منع رسوم الخلافة – وهى حفلاتها الرسمية فى الأعياد وغيرها – من ركوب فى المواكب ، وجلوس عام فى القصر الكبير ، واعتقل الخليفة ولم يعد يظهره للناس البتة ، حتى يبين لهم ما يريد من ازالة دولته ويعودهم على نسيانه ، واعتقل أقرباءه . بل جعل القاهرة عاصمة الفاطميين مبتذلة ، وحط من قيمتها ، كما ألغى من نقش العملة كلمة المعزية التى كانت تدل على أن بانى القاهرة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى . ولما جاء أيوب أبو صلاح الدين فى سنة ٥٦٥/١١٦٩ ، أخرج العاضد للقائه ، وهذا يدل على مدى امتهان حق هذا الخليفة . وقد حدث

مثل ذلك ، حينما كان يسيطر ملوك البويهيين الشيعة على الخليفة العباسى السنى الطائع ، وأجبروه على استقبال رسول الخليفة العزيز . ويقول عمارة اليمنى ، ان صلاح الدين فعل بالفاطميين ، أكثر مما يفعله الفرنجة .

ثم اتخذ صلاح الدين خطوات أخرى حاسمة للاجهاز على قوة الخلافة الحربية ، التى كانت قد ضعفت بدليل تسابق الترك والصليبيين فى الاستيلاء على مصر . فقد كان الجند الفاطميون فى أواخر أيامهم يتكونون من عناصر مختلفة كمعظم الجند الاسلامية فى عصره ، الا أنه كان يستمد قوته من عنصرين أساسيين ، هما : المصريون الذين كانوا قد كثروا فيه بسبب أن بلادهم كانت مهددة من جانب الصليبيين ، فاضطروا الى القيام بالدفاع عنها ، بحيث أنهم لم يصبحوا فقط عماد جنده ، ولكن أيضا من قواده . فنقرأ غالبا فى كتب المؤرخين عبارة : « الأمراء المصريين » ، أما العنصر الآخر : فهم السودانيون ومعظمهم من النوبيين ، الذين كثروا فى عهد الخليفة المستنصر ، بسبب أن أمه نوبية ، وعرفوا لكثرتهم بعبيد الشراء . وعلى العكس ، لم نعد نسمع فى تكوين الجند الفاطميين عن العناصر السابقة من المغاربة البربر ، والمشارقة الترك والديلم ، فالأولى قد أبعدت من صفوفه منذ ثورة أبى ركوة المغربى فى عصر الحاكم ، وانفصال المغرب عن طاعة الفاطميين فى عهد المستنصر ، أما المشارقة وهم الترك والديلم فانهم أبعدوا منذ مجىء الترك السلاجقة الشام ، ولم يعد للفاطميين فيهم ثقة .

وقد بدأ صلاح الدين بطائفة السودانيين ، الذين كانوا يكونون غالبية الجيش الفاطمى فى آخر أيامه ولا يعترفون الا بالخلافة الفاطمية ، وبلغ عددهم أيام العاضد خمسين ألفا ، وكانوا يقيمون فى حارات كثيرة بظاهر القاهرة ، حيث عرفت لهم طوائف قوية ،

مثل : الفرحية والريحانية والميمونية والحسينية والمنصورية . وكان للسودانيين قوة وشوكة فى وقت العاضد ، ويقول المقريزى انهم سيطروا على الجيش والدولة والقصر ، واذا ثاروا على وزير قتلوه . لذلك تحرشوا بصلاح الدين بعد قتل مؤتمن الخلافة جوهر — كبير رجال القصر — وثورة حرس القصر وأغلبهم من السود — مثلهم ، فأرسل صلاح الدين نحوهم أخاه الأكبر توران شاه — بمعنى ملك الشرق — على رأس الترك لقتالهم . ومع أن السود كادوا يتغلبون على الترك ، الا أنهم انهزموا لما أجبر صلاح الدين الخليفة على تخذيلهم ، وحرق حاراتهم بما فيها مساكنهم ونساؤهم وصبيانهم ، فانهزموا الى الصعيد ، وعرفت الواقعة بواقعة السود — السودانيين أو العبيد — وذلك فى سنة ٥٦٤/١١٦٨ .

وفوق ذلك ، استبد صلاح الدين بقواد الجيش الفاطمى « الأمراء المصريين » ، مع أنه أول الأمر بذل لهم المال فاحبوه وأطاعوه ، وكان عمه قبله لم يغير على أحد شيئا ، فعمل على انقاص اقطاعهم ، ثم قبض عليهم فى ليلة واحدة ، وأنزل أصحابه فى دورهم ، وفرق اقطاعاتهم عليهم . ويقول المقريزى ، منذ كانت أيام صلاح الدين الى يومنا ، فان أراضى مصر كلها كانت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده ، اذ كان معظم من جاء معه من التركمان — وهم الترك — والكرد . وكان الرجل منهم اذا استحسن دارا أخرج سكانها ونزل فيها ، بحيث أن معظم أهل القاهرة كانوا يبكون من الاستبداد .

ولما تم له اضعاف جانب الخلافة الفاطمية وهدم دعوتها ، لم يتردد فى الغائها من مصر فى أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧ / ١٠ سبتمبر ١١٧١ ، وارجاع الخطبة للخليفة العباسى السنى المستضىء بأمر الله ، الذى تولى بعد أبيه المستنجد بالله المتوفى سنة ٥٦٦ / ١١٧٠ ، وذلك بعد أن كانت الخطبة العباسية قطعت من مصر منذ

مائتى سنة • وقد قيل فى ظروف هذا الالغاء عدة روايات منها : ان صلاح الدين لما خطب لبنى العباس ، اغتم الخليفة العاضد ومات ، أو أنه كان فى يده خاتم فيه سم فمصه ومات ، كما قيل ان الطبيب الذى كان يعالجه لما رأى رغبة صلاح الدين فى عزله ، امتنع عن مداواته ، أو أن توران شاه أخو صلاح الدين ، هو الذى قتله بنفسه على حسب مراجع الفرنجة • ويلاحظ المؤرخون أن العاضد فى اللغة هو القاطع ، وفعلا قطعت بالعاضد خلافة الفاطميين ، كما أن وفاته كانت فى عاشوراء يوم ذكرى مقتل الحسين ، وهو يوم نوح وبكاء عند الشيعة •

وبعد هذا الالغاء استولى صلاح الدين على الكنوز التى كان خلفاء الفاطميين قد كدسوها منذ مجيئهم مصر فى خزائن وحواصل ، عبارة عن قاعات كبيرة بداخل قصورهم وخارجها ، وتتمثل فيما جمعوه منها من جميع بقاع الدنيا ، وفيما صنعوه فى مصر ، مما لم يكن له مثيل من قبل فى أى بلاط آخر • فكانت كثيرة تتكون من شارات الخلافة « الآلات الملوكية » ، مثل : القضيب الذى كان يحمله الخليفة الفاطمى فى المواكب على طريقة الفراعنة ، وهو عود طوله شبر ونصف مرصع بالدر والجوهر وملبس بالذهب ، واليتمة التى كانت توضع على تاج الخليفة « العمامة » فى الأعياد الرسمية ، وهى جوهرة لا تقدر بثمن ، وحولها جواهر أخرى من ياقوت أحمر ، تحيط بها فى شكل حافر ، وغير ذلك من التحف والعملة والمصاغ والجوهر والنحاس والملبوس والأثاث والقماش والسلاح والأعلام ، كما وجدت فى الخزائن عمامة الخليفة العباسى القائم حيث كانت أرسلت الى المستنصر لما طرده البساسيرى من بغداد • قد استمر بيع هذه الكنوز ، التى قدر قراقوش بنفسه أثمانها ، أكثر من عشر سنين ، كما أهدى صلاح الدين بعضها لمن حوله وبخاصة لنور الدين •

أما الكتب بالقصر الفاطمى الكبير ، وكانت كثيرة موضوعة فى أربعين حجرة فيه ، ولم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم منها ، فان صلاح الدين كان همه التخلص منها لاحتوائها على كتب الشيعة وعقائدهم ، فحدد لبيعها فى كل أسبوع يومين ، وأعطى كثيرا منها للقاضى الفاضل ، الذى كان قد عمل فى الدواوين الفاطمية أيام رزيك بن طلائع وشاور ، ولما جاء شيركوه عينه رئيسا لديوان الانشاء بدلا من رئيسها السابق يوسف بن الخلال ، وأصبح ذراع صلاح الدين الأيمن ووزيره فيما بعد • أما الأملاك والأراضى ، فانها وزعت على أقرباء صلاح الدين ، وأفراد أسرته الكثيرين ، الذين استدعاهم من الشام ، فأعطى : أيوبا اقطاع الفيوم وتوران شاه قوص وأسوان وعيذاب ، وذلك بعد هزيمته للسودان • وقد أغلق القصور أو ملكها أمراءه ، ومنح أباه احداها ، بل كان الرجل من أتباعه اذا استحسن دارا أخرج أهلها ونزل فيها كما ذكرنا •

أما سكان القصور الفاطمية ، فان قراقوش أخرج منهم على حسب قول المقريزى عشرة آلاف شريف وشريفة — أى من العلويين — ومن الخدم ثمانية آلاف بين خادم وأمه مولدة أو أكثر ، فأعتق صلاح الدين بعضهم وأهدى أو باع البعض الآخر • أما أولاد العاضد وأقرباؤه — وكانوا أكثر من مائة — فانهم اعتقلوا ، وفرق الرجال من النساء لئلا يتناسلوا ، واستمروا معتقلين طول زمن الدولة الأيوبية • ومجىء المماليك • وقد كانت تصرفات قراقوش الجائرة نحو سكان القصور الفاطمية سببا فى سخرية المؤلفين منه ، حتى ان أحدهم من المصريين ألف كتابا عنه سماه الفاشوش — أى الغباوة — فى أحكام قراقوش ، ذكر فيه أشياء يبعد وقوعها منه ، والظاهر أنها موضوعة للنيل منه ، ولعل القراقوز تحريف لاسمه ، وهو اللعبة التى بقيت الى وقتنا لتضحك الناس فى مصر ، بل وفى العالم أجمع •

وقد ترتب على انهاء صلاح الدين للخلافة الفاطمية رنة فرح كبيرة بين السنيين ، الذين وصفوها بدولة الرافضة ، أى التى رفضت الدين الاسلامى وخرجت عليه · وقد كانت الخلافة العباسية السنية تتطلع الى أن يزيل نـور الدين الدولة الفاطمية ، حتى ان الخليفة المقتفى لأمر الله بعث بتقليدها اليه حينما قتل الظافر الفاطمى بمصر ، وان كان سقوطها على يد صلاح الدين تم فى أيام حفيده المستضىء بأمر الله · وقد بعث صـلاح الدين ببشارة الالغـاء الى نور الدين ، فبعث هذا الأخير رسولا بكتاب تهنئة خاص للمستضىء ، ومعه منشور الالغاء الذى قرىء فى سائر المدن والقرى الى أن وصل الى بغداد ، كما أرسل صلاح الدين للمستضىء بكتاب من خـط القاضى الفاضل وانشائه · فزينت بغداد ، وغلقت الأسواق ، وأقيمت الاحتفالات ، لاستقبال رسول نور الدين ، وقراءة المنشور · وقد أسرع الخليفة المستضىء بارسال الخلع من ملابس وغيرها لنور الدين ، ومثلها أقل فى العدد والقيمة لصلاح الدين لأنه نائب لنور الدين ، وكلها سوداء شعار العباسيين ، بدلا من البياض شعار الفاطميين ·

وفى مصر احتفل صلاح الدين رسميا بوصول خلعة الخليفـة العباسى اليه ، فلبسها وشق بها حارات القاهرة · وفى صلاة الجمعة التالية للالغاء نصبت على المنابر فى مصر والقاهرة الأعلام السوداء ، ولبس الخطباء ثيابا سوداء أرسل بها من بغداد ، وأجبر على الحضور رجال الدولة وأعيان المصريين ، وهدد من تأخر منهم بالعقاب ، فحضر من لا يريد الحضور ، وأصبح يخطب لصلاح الدين على منابر مصر ، بعد الخليفة العباسى ونور الدين · كذلك قررت العملة باسم المستضىء بأمر الله ، وباسم الملك العادل نور الدين ، فنقش اسم كل منهما فى وجه ·

أما حقيقة موقف المصريين من انهاء الخلافة الفاطمية ، فقد كان

له وقع أليم وأسى ، بحيث أن ابن تغرى بردى يقول : ان نفوس المصريين كادت تزهق حزنا لانتهاء دولة الفاطميين · ولا ريب ، فهذه الخلافة الفاطمية ، كان قد أحبها المصريون ، لأنها جعلت من مصر دولة مستقلة استقلالا تاما ، لا يحكمها ولاة معينون من بغداد أو دمشق أو المدينة كما كان الحال من قبل ، ولكن خلفاء من بيت النبى منافسون لخلفاء العباسيين فى العراق ، فنبهت بذلك الى مركز مصر فى دار الاسلام ، وهو المركز المرموق الذى لا تزال قابضة عليه الى الآن · ولم ينس المصريون أن الفاطميين جاءوا للجهاد ، وأنهم قاموا بدور هام فى الدفاع عن الاسلام بصد البيزنطيين اليونان ، الذين كانوا بدأوا الحروب الصليبية ووصلوا الى قرب القدس وحدود مصر ، قبل مجىء الفرنجة بالشام · كذلك كانت الخلافة الفاطمية تعتمد فى دواوينها على المصريين ، سواء أكانوا من المسلمين أم القبط ، الذين تولوا أعلى مناصبها بما فيها الوزارة · وأخيرا ، فان أيام الخلافة الفاطمية فى مصر ، كانت اعيادا متواصلة مما لم يعرف له مثيل من قبل ، ليست فقط للمسلمين من أهلها وانما أيضا القبط ، بحيث أنها فى أعياد القبط كانت تطلق المأكولات والأموال والملابس للموظفين القبط والمسلمين ليكون الابتهاج عاما ، وأنها كانت تقوم بسـك دنانير خاصة بها ، كما كانت تفعل فى أعياد المسلمين · لذلـك اعتبرها المصريون دولتهـم ، حتى ان معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها : « بدولة المصريين » ·

ومن ناحية أخرى ، كان سقوط الخلافة الفاطمية يعنى عندهم أن مركز بلادهم قد ضعف بعودتها ولاية تابعة لخلافة العباسيين ، وأنهم خضعوا لجنس أجنبى عنهم وهو الغز (أى الترك) ، بحيث أن ابن جبير الرحالة الذى زار مصر عدة مرات أيام صلاح الدين ، لاحظ أنه بانهاء خلافة الفاطميين تملك الغز ديار مصر ، كما ألف ابن الجوزى المؤرخ العراقى المتعصب (ت ٥٩٧/١٢٠٠) ، كتابا

سماه : « النصر على مصر » . وكان سقوطها يعنى أيضا الخضوع لصلاح الدين الكردى المستبد ،الذى استعبد فى وزارته رجال مصر ، واخرجهم من الوظائف والجيش وانزل رجاله فى بيوتهم ، وهم أيضا باخراج القبط من الدواوين أو من البلاد ، لولا خوفه من توقف دولاب الأعمال . كذلك قدروا أن عصر الرخاء قد زال بزوال الفاطميين ، لأن أموال مصر وخيراتها تخرج للترك الغرباء فى مصر والشام ، وأحسوا باختفاء العملة الذهبية والفضية من التداول منذ مجىء صلاح الدين ، وظهرت بدلها عملة رديئة هى الفلوس ، وهى من نحاس أو نحاس مخلوط بفضة ، فكان العثور على دينار ذهب « أحمر » أشبه ببشارة من الجنة ، مع أن الفلوس كانت تعتبر زمن الفاطميين عملة غير قانونية .

لذلك نجد المصريين يقومون ضد صلاح الدين بثورات ، بقصد التخلص من استبداده واحتلال الترك لبلادهم وأخذهم خيراتها ، واعادة الخلافة العلوية المصرية . ويحس صلاح الدين بعداء المصريين له ورغبتهم فى التخلص منه ، فيذكر فى مراسلاته لنور الدين ، أن أهل مصر وجندها أعداء . وقد قاموا بثورات عارمة بجميع طبقاتهم ودياناتهم ، استمرت عدة سنوات وشملت معظم مدن مصر من الاسكندرية الى حدود النوبة . ونحن لا نقبل ما روجه مؤرخو السنة من أن ثورات المصريين ، كانت بالاتفاق مع الصليبيين رغبة فى تشويه أهدافها . حقا ان الصليبيين جاءوا لمهاجمة مصر فى الوقت الذى قامت فيه هذه الثورات ، لأنهم كانوا يتربصون بها منذ أن استقروا بالشام ، وينتهزون فرصة اضطراب أحوالها للحصول على مغانم . ففى رأينا أن ثورات المصريين ضد صلاح الدين نبعت من باعث وطنى ضد الاحتلال التركى ، ومن الكبرياء لاستبداده بهم، وخصوصا قد رأيناهم من قبل يثورون بشاور لاستعانته بالأجنبى سواء أكان من الصليبيين أم الترك . وبذلك تعتبر ثورات المصريين

دليلا جديدا يناقض فرية المؤرخ السيوطى ، فى أن أهل مصر كانوا عبيدا لمن غلب .

ولعل أكبر المحاولات لاعادة الخلافة الفاطمية ، هى التى اشترك فيها جمع كبير من المصريين بما فيهم القاضى والداعى والكاتب والأمير وأستاذ القصر ، والعوام من الشعب ، وأهل ثلاث ديانات من المسلمين والنصارى واليهود ، وحتى السودانيين ، وذلك فى سنة ٥٦٩/١١٧٣ . وكان على رأس هذه المؤامرة شخصيات من كبار رجال الدولة السابقة مثل ابن عبد القوى المعروف بالجليس ، الذى كان أفراد أسرته يتولون رئاسة الدعوة الفاطمية أبا عن جد ، والعوريس المشرف على مالية الفاطميين «متولى ديوان النظر» ، وابن كامل القاضى ، والقشة أحد أمراء المصريين (أى قوادهم) ، والشاعر الفقيه عمارة اليمنى ، الذى كان من أنصار الفاطميين ، وجاء مصر فى عهد الفائز ، واستمر يمدحهم ويرثيهم حتى بعد زوال خلافتهم ، والواعظ على بن نجا ، وكانوا قد اختلفوا على أن يكون خليفتهم رجل كبير السن من بنى عم العاضد أى من نسل جبريل أو من أولاده ، حيث يذكر المقريزى أن العاضد ترك احد عشر ولدا ، ثم اتفقوا على تولية ابن العاضد الأكبر ولقبوه بالحامد لله ، ووزعوا فيما بينهم المناصب . ويذكر المؤرخون – وأكثرهم من السنة أنصار صلاح الدين – انهم دبروا هذه المؤامرة بعد مراسلات مع الفرنجة فى صقلية والشام « الساحل » ، وحتى مع صاحب الدعوة الاسماعيلية فى شمال الشام رشيد الدين سنان بن سليمان ، وكان يلقب بشيخ الجبل ، وكان أبوه من كبار دعاة الحسن بن الصباح ببلاد الألموت بفارس – بمعنى عش النسر – وجاء الى الشام فى أيام نور الدين ، ودعا للشيعة الاسماعيلية وأصبح كبيرها ، واستولى على قلاع كثيرة من السلاجقة ، وكان تحت يده الفداوية وهم المخلصون من أتباعه ، الذين يقتلون باشارة منه ، فيأمر احدهم بالتردى من شاهقة جبل

فيتردى ، ويستعجل فى مرضاته الردى كما يقول ابن جبر الرحالة ،
وأصبحت بلاده تعرف ببلاد الاسماعيلية ، فكتبوا اليه ليرسل احد
رجاله لتدبير مكيدة لاغتيال صلاح الدين ، وقالوا له : « ان الدعوة
واحدة ، والكلمة جامعة ، وأنه ما بين أهلها خلاف الا فيما لا يفترق
به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة » . وأخذ عمارة اليمنى أحد
المشتركين فى المؤامرة فى مدح توران شاه ، واغراه بالذهاب الى
اليمن – وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين – بغية ابعاده لأنه عرف بقوة
شكيمته ، كما انهم استطاعوا استمالة بعض القواد الترك الذين كانوا
مع صلاح الدين .

ولكن خبر المؤامرة وصل الى علم صلاح الدين على يد احد
أعوانه وهو ابن نجا ، الذى دسه بينهم ، فاحتاط على ولد العاضد
وسجنه ، وأحضر المتآمرين واعترفوا له ، وأجبر فقهاء مصر على
الافتاء بقتلهم ، فشنقهم وصلبهم فى ميدان بين القصرين ، وهو من
أكبر الميادين بالقاهرة ، يقع بين القصر الكبير الشرقى والقصر
الصغير الغربى ، اذ كان يتسع لعشرة آلاف جندى . كذلك قبض
على كل من له يد فى المؤامرة من بعيد أو قريب ، فشنق كثيرا من
رجال الحاشية وأجناد الفاطميين السابقين ، وقتل بعض قواده
« أمرائه » ، الذين استطاع المصريون استمالتهم ، ولم يمكن لورثتهم
فى شىء . ثم تتبع أنصار الخلافة الفاطمية بالقتل والسجن ، حتى
انه قبض أيضا على من ثار من دعاتهم بالاسكندرية ، وجمع كثيرا من
السودانيين وكواهم بالنار فى صدورهم ووجوههم . وعلاوة على ذلك
أمر كافة الأجناد المصرية والسودانية وحاشية القصر بالرحيل الى
أقصى الصعيد بقصد نفيهم ، بحيث لم يبق من العساكر الفاطمية
بالقاهرة أحد ، كما قطع أرزاق الموظفين وصادر أملاكهم ، ومنهم
القاضى والداعى والموظف والأمير ، فأصبحت الدولة كلها بين يديه .
ويدى الكرد والترك من جنده .

هذه الثورة التى أطفئت فى العاصمة ، ما لبثت أن اشتعلت
من جديد فى الصعيد ، وهدفها أيضا اعادة الخلافة الفاطمية ، وذلك
فى سنة ٥٧٠/١١٧٤ ونقصد بها الثورة التى قام بها شخص يلقب
بكنز الدولة أو الكنز ، وهو مصرى من أهل الصعيد ، كان من قواد
الفاطميين « مقدما » ، وواليا على أسوان ، ولا سيما أنه كان فى هذا
الثغر حامية من العسكر مستعدة بالأسلحة ، اذ كان من عادة
الفاطميين انزال العساكر فى مراكز الحدود « الثغور » . وأختلفت
بعض المراجع فى أصله ، فقيل ان كنز الدولة من السودان ، الا أن
المقريزى يقطع بصحة مصريته ، حينما ينقل الينا أنه خرج لقتال
عبيد النوبة ، الذين هاجموا القرى المتاخمة لثغر أسوان ، بالاشتراك
مع عسكر صلاح الدين ، فقاتلهم وهزمهم سنة ٥٦٨/١١٧٢ . كما
أرسل صلاح الدين بعدها جيشا بقيادة أخيه توران شاه الى بلاد
النوبة لتأديب أهلها ، وان لم يستطع ان يقوم بشىء هام ، اذ كانت
النوبة لا تزال دولة مسيحية مستقلة لم يفتحها المسلمون . وقد
اشترك معه فى هذه الثورة عباس بن شادى والى قوص ، وهى المدينة
الكبيرة الواقعة شرقى النيل وسط الصعيد واعتبرت قصبته ، ومحط
التجارة والحجاج ، بسبب أن الصليبيين كانوا يسيطرون فى الشام .
وقد جمعا حولهما عددا كبيرا لم نسمع بمثله من قبل ، بلغ مائة
ألف ، من أهل الصعيد الأقوياء ، والجنود الكثيرين من المصريين
والسودانيين ، الذين كان صلاح الدين قد نفاهم الى الصعيد . وقد
قدر صلاح الدين خطورة ثورة الصعيد عليه ، حتى أنه فكر فى
الذهاب بنفسه لاخمادها ، ولكن خوفه من تجدد الثورات بالقاهرة ،
جعله يرسل أخاه العادل أبا بكر ، الذى استطاع أن يهزمهم ويقتل
عباسا وكنزا وثمانين ألفا من المصريين ، كما نهب بلاد الصعيد
عقابا لها ، وأخذ أسرى كثيرين من أهلها ، صلب منهم ثلاثة آلاف ،
مما دعا الى فرار عدد كبير من المصريين الى بلاد النوبة .

ولكن عادت الثورات الى الصعيد حينما اندلعت من جديد بمدينة قفط وسط الصعيد قرب قوص سنة ١١٧٦/٥٧٢ ، اذ كانت هذه المدينة منذ أيام على بن أبى طالب وقفا للعلويين · فقد أظهر فيها أحد الدعاة السابقين من بنى عبد القوى الذى استطاع أن يجمع حوله عددا كبيرا من أهلها بقصد اعادة الخلافة الفاطمية · فأرسل صلاح الدين نحوه جيشا بقيادة أخيه العادل الذى قتل منهم نحو ثلاث آلاف ، وصلبهم على شجر المدينة ، ليكونوا عظة لمن تحدثه نفسه بالدعوة للفاطميين ·

ولا ريب فى أن صلاح الدين بعد اخماده هذه الثورات ، أصبح ، السيد القوى المطاع فى مصر · ومع ذلك فهو لم يحقق سيطرته فيها ، لأنه استخدم القسوة المتناهية مع أهلها ، فقضى على جميع العناصر المعادية له بينهم فحسب ، ولكن لأن أغلبية المصريين قد وجدوا فى حكمه ، الذى ينوب فيه عن نور الدين ، صالح الاسلام المهدد من قبل الصليبيين ، وكانت همته متجهة الى التخلص منهم · وعلاوة على ذلك ، فان صلاح الدين سار فى حكم المصريين على سياسة رشيدة ، تختلف عن سياسة الفساد والاضطراب ، اللذين لازما خلفاء الفاطميين ووزراءهم فى أخريات أيامهم · فيكفى أن نذكر ما ردده معظم المؤرخين كمأثرة لصلاح الدين : أنه فى صفر من الشهر التالى على سقوط خلافة الفاطميين ، أسقط ضريبة المكوس البغيضة ، التى كانت قد فرضت على كل شىء ، بحيث قال المقريزى عنها : انها فرضت على كل البضائع والناس ، وأن الهواء وحده أخلى سبيله وبقى حرا · وكان الذى كره المصريين فيها أيضا ، هو أنها ضريبة جائرة غير شرعية ، لأنها لم تكن فرضت فى عهد الخلفاء الأوائل ، وكان بعض الأتقياء من خلفاء الفاطميين أنفسهم ، مثل الحاكم ، « عملوا »على الغائها أو على الأقل على تخفيفها · لذلك لما أمر صلاح الدين باسقاطها، وقرأ المنشور بذلك فى الجوامع ، كان وقعها حسنا فى نفوس

المصريين ، الذين أثقلوا بالضرائب ، بسبب حربهم ضد الترك والصليبيين وسوء السياسة ·

كذلك قام صلاح الدين بسياسة انشائية اصلاحية خاصة بالقاهرة ومصر ، ليتقرب من أهلهما ، ولا سيما أنهم كانوا من أكثر الناس تحمسا للخلافة الفاطمية السابقة · فأقام مستشفى «مارستانا»، بقصر من قصور القاهرة ، لعلاج المرضى من الرجال والنساء ، ووضع بها أسرة فى غرف « مقاصير » ، وزودها بخزائن العقاقير ، وعين فيها من يشرف على المرضى من الجنسين ، واتخذ محابس للمجانين ، وعمر المدارس والجوامع الكثيرة لأبناء الفقراء والأيتام خاصة ، كما هدم بمصر حبس المعونة ، التى وصفها المقريزى بأنها كانت أشبه بجهنم الحمراء ، وأنشأ مكانه مدرسة · ويبدو أن هذه السياسة الرشيدة ، حببت أهل القاهرة ومصر فيه ، بحيث أنه لما ثار بعض الشيعة ، أثناء غيابه خارج مصر فى محاربة الصليبيين فى سنة ١١٨٨/٥٨٤ ، ونادوا بشعار العلويين فى شوارعها ،وهتفوا : « يا ل على يا ل على » ، ظنا منهم أن أهل القاهرة يلبون دعوتهم ، ويخرجون العلويين المعتقلين ، لم يهتم أهل القاهرة بهم ، فأخذوا بسهولة ، وان كان ذلك أزعج صلاح الدين جدا ·

وصفوة القول أن صلاح الدين الكردى وأسرته خرجوا من حملات نور الدين على مصر بنصيب الأسد ، بحيث استحقوا قول الشاعر :

أصبح الملك بعد آل على   مشرقا بالملوك من آل شادى

الفصل الرابع

قضاؤه على الدولة الأتابكية ٠

ولكن هدد ما ناله صـــلاح الدين من سـؤدد فى مصر ، ان نور الدين كان قد كشر لآل شادى عن أنيابه ، مع أنهم كانوا السبب فى امتداد ملكه من الفرات الى دمشـــق ٠ ونحن لا نعـرف سببا ظاهرا لتغيره المبكر عليهــم ، غير أنهم ـ كمـا لاحظ المقريزى فى عبارة خاطفة ـ كانوا قد استحوذوا على دولته بالشام ، فكان أيوب نائبه ، وشيركوه قائد جنده ، وصلاح الدين رئيس شرطته ٠ فلعل من أسباب بعث نور الدين حملاته على مصر بقيـادة شـــيركوه وصـلاح الدين ، رغبتـه فى التقليل من نفوذهم عليـه ٠ وقد أحس شيركوه بتغير نور الدين ، فكان شديد اللهفة على الخروج الى مصر ، بموافقة أخيه أيوب كما ذكرنا ، مع أنه الى ذلك الوقت لازم نور الدين فى معظم حروبه ٠ ولما تمكن شـيركوه من اخراج الفرنجة من مصر ، واستوزر للعاضد ، كان فى غاية الفرح للبقاء فى مصر ، حتى انه أمر بقراءة منشور الوزارة عدة مرات ٠ وعلى النقيض ، حنق نور الدين لتولية شيركوه الوزارة ، وزاد من حقده عليه ؛ وكأنه لم يكن يرجو فتح مصر من الفرنجة على يديه ، بحيث قال أحدهم : لقد جـرى ذكـــر فتـح مصر ، فوالله ما ابتهج به نور الدين ، وظهرت فى مخايل قسماته وفلتات كلامه الكراهية لذلك ، فقد قدر خطر طموح شيركوه على نفوذه ٠ وأكثر من ذلك

ان نور الدين توسل للخليفة الفاطمى ، فخاطبه بما يتضمن اعترافه بامامته ولقب نفسه بالعبد ، طالبا منه الاستغناء عن شيركوه ، وارساله اليه ٠

ولكن حقد نور الدين على آل شادى بلغ أقصاه ، لما استحوذ صلاح الدين بعد وفاة عمه على وزارة العاضد ، اذ تأكد نور الدين من طموحهم ، وأنهم يعملون لأنفسهم ، فكان كثيرا ما يقول متحسرا : « ملك ابن أيوب » ٠ ومن ناحية أخرى قوبل صلاح الدين بمعارضة شديدة من الأمراء النورية الموجودين فى مصر ، وكان أغلبهم من الذين ضمهم نور الدين الى شيركوه فى حملته الأخيرة - ربما لمراقبته - فلم يقبلوا طاعته ، وعاد بعضهم الى الشام عند نور الدين ، الذى ظهر تأففه من أن يتولى صلاح الدين وزارة العاضد بدون أمره ٠ وتبدو كراهية نور الدين لصلاح الدين فى أنه بينما كان الخليفة الفاطمى يخاطب صلاح الدين بالوزير ، كان نور الدين يخاطبه فقط بالأمير الاسفهسلار أى القائد ، ولا يفرده بالخطاب ، فيكتب اليه : الأمير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء النورية بالديار المصرية يفعلون كذا ، ويضع على رسائله عبارته المميزة - علامته - ولا يكتب اسمه تعظما عليه ٠ ونجد نور الدين يستولى على اقطاع شيركوه بحمص من نوابه ، بحجة أن آل شادى استقروا فى مصر ٠ وقد كان نور الدين يعبر عن خطئه بارسال حملة مصر بقيادة آلى شادى ، بقوله : « ما أخطأت الا فى انفاذى أسد الدين الى مصر » ٠

ومع ذلك كان صلاح الدين مصمما على الاحتفاظ بما وصل اليه من سؤدد فى مصر نتيجة لمجهوده ومجهود عمه من قبل ، وأصبح همه احضار بقية أهله من الشام ، ليقيموا معه ، ولينقذهم من نقمة نور الدين ٠ لذلك طلب منه أن يسيرهم اليه ، ولكن

نور الدين رفض فى أول الأمر ، بحجة أنه خاف أن يخالف أحد منهم عليه ٠ وبعد ذلك عمل نور الدين على اخراجهم من بلاده ، فأرسل اليه بعض أهله عام ٥٦٤/١١٦٨ ، وعلى رأسهم أخوه الأكبر فى السن توران شاه ، حتى يوجد له منافسا من أهله ، ولأن توران شاه كان يحسد صلاح الدين ، اذ يصفه المؤرخون بأنه أسوأ بنى أيوب سيرة وأقبحهم طريقة ٠ بيد أن توران شاه لما وصل مصر ، كان من أعظم الأسباب فى نصرة أخيه وهزيمة السودانيين ، كما أن صلاح الدين شغله عنه بارساله فى غزوات عديدة خارج مصر ، فبعث به الى النوبة فى سنة ٥٦٨/١١٧٢ ، فأغار فيها بنجاح ، وبعدها أرسله الى الحجاز واليمن عن طريق البحر الأحمر فى سنة ٥٦٩/١٠٧٣ ، فتمكن توران شاه من اعلان الخطبة للخليفة العباسى فى الحجاز ، وقتل على بن مهدى الحميرى فى سنة ٥٧٠/١١٧٤ ، الذى كان مسيطرا على اليمن لصالح الفاطميين ٠ ولما عاد توران شاه من اليمن فى سنة ٥٧٢/١١٧٦ ، تخلص صلاح الدين منه من جديد بأن أرسله بعيدا عنه الى الاسكندرية ، حيث منحه اقطاعها واقطاعات أخرى بالصعيد ، فبقى فيها الى وقت وفاته سنة ٥٧٦/١١٨٠ ، وكان من وقت لآخر تبدو من توران شاه كلمات فى حق أخيه ، وأنه أولى بالملك منه ٠ كذلك أحضر نور الدين أيوبا ، ولزمه بالخروج من الشام الى ولده فى مصر بحجة تحريضه على ازالة الخطبة للخلافة الفاطمية ، فكان وصول أيوب الى مصر فى سنة ٥٦٥/١١٦٩ ، من أهم العوامل فى توطيد أقدام ابنه صلاح الدين أمام القواد النورية ، اذ كان أيوب شخصية هامة فى نظرهم ، لايجلس فى مجلس نور الدين غيره ، وقد عرض صلاح الدين على أبيه الوزارة فرفض تعففا من أن يأخذ ما ناله ابنه ، وقال له : « يا بنى ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر الا وأنت أهل له » ٠ وكان ضمن من جاءه أيضا اخوته ، الذين

شدوا من أزره ، وهم : بورى ـ تاج الملوك ـ (ت ٥٨٩/١١٩٣) ، وطغتكين ـ سيف الاسلام ـ (ت ٥٩٣/١١٩٦) ، وأبو بكر ـ العادل ـ (٦١٦/١٢١٩) .

ويبدو أن صلاح الدين قد سرح معظم الترك فى الجيش الذى معه ، وان أبقى على الأكراد بنى جنسه ، وربما كان ذلك بتحريض العاضد الفاطمى الذى أرســل يشكو الجند الترك لنور الدين ، فمدحهم نور الدين له ، لأنه كان يريد بقاءهم لمعارضة كرد صلاح الدين . كذلك أحاط صلاح الدين نفســه بجماعة الأسدية ، المنتسبة الى عمه أســد الدين ، وعدتهم خمسمائة مملوك ، اذ مالوا اليه غداة وفاة عمه ، ليقف فى نضــاله أمام القواد النورية ، الذين أراد بعضهم الوزارة لأنفسهم ولم يقبلوا طاعته . فكان على رأس الأسدية بهاء الدين قراقوش ، الذى عرف باخلاصه لآل شادى ، وأصبح ذراع صلاح الدين الأيمن فى تنفيذ سياسته . كما أوجد صلاح الدين لنفسه جندا كثيرين ، جمعهم من بين طبقات المماليك الراقية أو الخصيان « الطواشية » ، أو من الجند الأحرار « الحلقة » ، فلعلهم هم الصلاحيــة الذين عرفوا باسمه . وفوق ذلك استخدم العربان الساكنين فى مصر من قبائل الثعالبة والجذاميين ، وهم الذين كانوا يعملون منذ هجرتهم الى مصر ، لمن يدفع لهم من حكامها . ولكى يستميل أمراء جيشه ـ وكان أغلبهــم من الأمراء النــورية ـ أغدق عليهم الاقطاعات التى كانت بيد أمراء المصريين ، وأنزلهم فى البيوت التى تحلوا لهــم ، أو فى القصور الفاطمية . ولما احتاج الى المال للصرف على العسكر ، اذ كانوا يأخذون منه « النفقة » أو « الجامكية » ، أشــير عليه بارسال حملة الى برقة ، التى كان بها أموال كثيرة ، ولا يسكنها الا عربان من غير ســلاح ، فضــلا عما أخذه فى مصر من مال الفاطميين . وعلى ذلك كثرت طوائف عسكره المسماة بلغة عصره :

« أطلاب » ، ســواء من الجند القدامى أو الحديثين « قديمهــا وحديثها » حتى بلغ عددها أربعــة عشر ألفا سنة ٥٦٧/١١٧١ ، فكانت أشبه بعسكر ملك من الملوك ، على حسب ملاحظة المقريزى .

ومع ذلك كان عليه أن يسير بحذر فى سـياسته مع نــور الدين ، حتى لا يتعرض لبطشه ، اذ كان له بالمرصاد ، يعد عليه تصرفاته ، ولا سيما أن أمراء جيشه كما ذكرنا ، كان أغلبهم من القواد النورية ، الذين يكاتبون نور الدين ، ويدينون بالولاء له . ولذا نــراه فى أول الأمر لم يتسرع بالغــاء الخلافة الفاطميــة ، واعتل بتشيع المصريين وعدائهم ، ولم يلغها الا بعد ثلاث سنوات من توليته وزارة العاضد ، حيث أتيحت له الفرصة بتقوية سلطته فى مصر . وبعد الالغاء ، لا يوحى لنور الدين بأفكار خاصة تؤخذ عليه ، فلم يبعث ببشارة الالغاء من قبله الى الخليفة المستضىء ، وانما بعثها لنور الدين ليبعثها للخليفة العباسى ، فهيأ له بذلك شرف اعلانها . كذلك لا ينتقل من دار الوزارة الكبرى بالقاهرة ، التى كان يقيم فيها وزراء التفويض الفاطميين منذ الوزير الأفضل ، حتى انها عرفت أيضا : بالدار الأفضلية ، وانمــا بقى فيها مثلما كان من قبل كنائب لنور الدين بمصر ، وكان صلاح الدين يخاطبه فى مراســلاته : بمولانا ، دلالة على خضــوعه له . وفى الوقت نفسه ، حاول أن يسترضيه بارسال الهدايا له ولأسرته ورجــال دولته ، من الغلمان والجوارى والخيل وبدائع الأموال والجواهر ، مما أخذه من خزائن الفاطميين .

أما من ناحية نور الدين نفسه ، فمع كرهه لصــلاح الدين ورغبته فى البطش به ، فانه وجد من السياسة أن يصبر عليــه حتى يلغى الخلافة الفاطمية ، وان كان صبره كاد ينفذ . فلمــا تم الالغاء عمل حثيثا على استدراجه خارج مصر ، التى وطد اقدامه

فيها . فدعاه الى مهاجمة الكرك والشوبك فى سنة ٥٦٧/١١٧١ ، وهما القلعتان الصليبيتان الحصينتان المسيطرتان على الطرق المارة من دمشق الى مصر والحجاز ، وذلك أثناء مهاجمته لهما . فراوغ صلاح الدين ، الذى فهم سوء نية نور الدين نحوه ، ولا سيما أن أخصاءه حذروه منه ، واعتل باختلال أحوال مصر ، مفضلا وجود الفرنجة فيصلا بينهما ، عن أن يقابله وجها لوجه ، ولكنه أرسل اليه هدايا . فغضب نور الدين ، وهو ما عبر عنه المؤرخون « بالوحشة » أو « النفرة » ، وفكر فى المجىء الى مصر ، لاخراج صلاح الدين . وقد ارتكب صلاح الدين هفوة ، ربما ترتب عليه مجىء نور الدين الى مصر ، لولا اسراعه باصلاحها بفضل مؤازرة أبيه : فحينما سمع صلاح الدين بتفكير نور الدين فى المجىء الى مصر ، جمع أهل المشورة من أهله وأمراء الجيش النورية ، حيث أعلن فيهم ابن أخى صلاح الدين ، أنه اذا ما فكر نور الدين فى المجىء لمصر فانه يجب قتاله ولكن أبا صلاح الدين وهو ذو رأى ومكر وعقل ، قال على مسمع من قواد نور الدين : « لو أمرنا نور الدين أن نضرب عقلك بالسيف لفعلنا ، فاذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا » ثم قال : « وهذه البلاد له ، ونحن مماليكه ونوابه فيها ... » . فتفرق القواد النورية على هذا الرأى ، بعد اقتناعهم باخلاص أهل صلاح الدين لنور الدين ، وكتب أكثرهم لنور الدين بالخبر . فلما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له : « يا بنى ، بأى عقل تجمع هذا الجمع الكثير ، وتطلعهم على سرك ، وما فى نفسك ، أما بعد الذى قلته ، فانه سيعدل عن قصدك » . وفعلا عدل نور الدين عن المجىء الى مصر . ولكى لا يكدره صلاح الدين ، ذهب بمفرده الى الكرك فى السنة التالية ٥٦٨/١١٧٣ ، وكانت أول غزواته من مصر ، وان اضطر الى العودة سريعا ، بسبب وفاة أبيه ، الذى نفر به فرسه أثناء الركض

واللعب بالكرة . وبذلك تفادى صلاح لقاء نور الدين مرة أخرى . وأرسل اليه يسترضيه ، ويعلن فى رسالة كتبها له بما وقع فى هذه الغزوة ، بلسان الولاء .

بيد أن نور الدين شعر أنه لا سلطة له اطلاقا على صلاح الدين ، ولا يمكن الاعتماد عليه فى حرب الفرنجة ، فقرر اخراجه من مصر بأى ثمن . وكخطوة أولى أرسل الى الخليفة يطلب منه تقليده ما بيده من البلاد المصرية والشام والجزيرة وغيرها عام ٥٦٨/١١٧٢ ، فأجابه الخليفة الى ذلك . ثم تحرش بصلاح الدين بأن بعث اليه رسولا من قبله عام ٥٦٩/١١٧٣ ، لعمل حساب البلاد وكشف أحوالها ، ومعرفة ما اذا كان فى طاعته ، بحيث غضب صلاح الدين ، ورد على الرسول بقوله : « الى هذا الحد وصلنا » . وكاد يعلن عصيانه ، لولا أنه كظم غيظه ، ليضيع على نور الدين حجته فى المجىء الى مصر ، فسهل للرسول مهمته ، وأمر بعمل الحساب وعرضه عليه ، وبعث معه من جديد هدايا لنور الدين . ابان ذلك ، كان نور الدين قد أرسل يطلب العساكر من بلاد الجزيرة ، ويستعد للمجىء الى مصر ، لولا أنه توفى بمرض كان أصابه فى حلقه « الخوانيق » ، كثيرا ما قض مضجعه .

ويجب أن نذكر أن صلاح الدين ما كان يستطيع أن يفعل شيئا مع نور الدين لو جاء الى مصر ، اذ كان نور الدين ــ على رأى مؤرخى عصره ــ شخصية قوية ، حتى انها شبهت بالخلفاء الكبار ، لما كان يرمى اليه من عزة الاسلام ، ولقوة حماسه فى قتال الصليبيين ، بحيث عرف كأبيه بالشهيد لطلبه الشهادة فى قتالهم ، واعتبر من أشد أعدائهم على حد قول وليم الصورى المؤرخ : «anemis aus Crestins Noradinus, li crueus» ونرى أن نور الدين استحق هذه المكانة ، لأنه كان المجاهد الوحيد بين

الملوك المسلمين ، الذين تراخوا فى الجهاد ، ولم يهتموا الا بأمورهم الخاصة · ومع ذلك فهو لم يحصل على نتائج حاسمة من جهاده ، مثلما حصل أبوه من قبل الذى تمكن من القضاء على احدى الدويلات الصليبية الكبرى أو حتى مثلما حصل صلاح الدين فيما بعد ·

ويبدو أن يد القدر ، هى التى كانت تمهد لصلاح الدين الطريق ، فأزالت نور الدين فى الوقت المناسب ، وان قيل ان صلاح الدين تأثر لموته وخنقته العبرات ، مما يدل على تقديره لصفاته على الرغم من عداوتهما · ومن ناحية أخرى ، كان صلاح الدين وأهله سيقاتلون الى آخر رمق فى سبيل ما أحرزوه فى مصر من سؤدد بمجهودهم ، يدل على ذلك ما قاله أيوب لابنه صلاح الدين : « والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر – اشارة الى أرض مصر – لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل » · ولكن لبعض المؤرخين روايات منها : ان صلاح الدين ما أرسل أخاه توران شاه الى النوبة واليمن ، الا لكى يجد فيهما ملجأ اذا ما هاجم نور الدين مصر ·

وبموت نور الدين تأكدت سيطرة صلاح الدين على مصر ، الا أنه فكر أيضا فى أن يخضع له بلاد الشام والجزيرة ، أى البلاد التى بقيت بأيدى المسلمين وسيطر نور الدين عليها ، وعرفت : « بالدولة الأتابكية » · وكان صلاح الدين يستهدف من وراء ذلك تكوين جبهة اسلامية ، أو على حد قوله : جمع الكلمة ؛ وهو ما كان نور الدين يسعى اليه قبله · وشجعه على ذلك أن نور الدين ترك طفلا صغيرا خلفا له ، لا يزيد عمره عن احدى عشرة سنة ، وهو الملك الصالح اسماعيل ، وما ترتب على ذلك من تنازع الأمراء النورية الوصاية عليه ، بزعامة شمس الدين محمد بن المقدم ، وسعد الدين كمشتكين – الأمير الفضى – الذى

قام بخطفه من دمشق الى حلب وحجر عليه ليحكم باسمه ، وبقى ابن المقدم فى دمشق · وهكذا أصبحت الوصاية عليه موضع نزاع بين دمشق وحلب ·

وفوق هذا فان ابن عم الملك الصالح واسمه سيف الدين غازى ، ما ان سمع بموت نور الدين ، وكان فى طريقه الى الشام لما طلب منه نور الدين المجىء بالجند لاخراج صلاح الدين من مصر ، حتى استخدم ما جمعه من جند فى الاستقلال بالديار الجزرية ، وفكر أيضا فى العبور الى الشام ليملكها من الملك الصالح ، ولا سيما أن قواد الملك الصالح لم يكونوا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ضده ، لتنافسهم وخوف بعضهم من بعض · وكان نور الدين قد ضم الديار الجزرية الى ممتلكاته الشامية ، بعد موت أخيه الأصغر قطب الدين مودود بن زنكى فى سنة ٥٦٥/١١٧٠ ، وان قبل منح الموصل لابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود على ان يبقى كمشتكين المذكور معه ، وأمره ألا ينفرد عن كمشتكين بقليل أو كثير فى حكمها ، واقطع ابن أخيه الآخر – وهو الأصغر – عماد الدين زنكى بن مودود مدينة سنجار الواقعة قرب الموصل · ولكن كمشتكين بعد موت نور الدين ، تمكن من الهروب من سيف الدين غازى ، وخطف الملك الصالح من دمشق ، وحكم باسمه فى حلب ·

فجعل صلاح الدين تحت ستار الدفاع عن حقوق الملك الصالح وأملاكه ، يعلن الخطبة له بالديار المصرية ، ويرسل اليه دنانير عليها اسمه ، ويكتب الى الامراء النورية بالشام يهددهم بحضوره لحماية مولاه من طمعهم ، فيقول : « ان الملك العادل ·· سلم اليه مصر ، التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى ،

وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاى وابن مولاى دونى ، فسوف أصل الى خدمته وجازى انعام والده » ٠ ومع ذلك لا يبدو ان صلاح الدين غادر مصر الى الشام ، الا بعد أن استدعاه أمراء دمشق ، وعلى رأسهم ابن المقدم ليعارضوا به كمشتكين الذى حجر على الملك الصالح فى حلب ، وخوفا منه اذ كان يحكم فى أكبر ولايات نور الدين وهى مصر الغنية ، واستنجادا به من الفرنجة الذين أخذوا فى مهاجمة نواحى دمشق ، وحتى لا يخرج عن طاعة الملك الصالح ٠ وكانوا قد كاتبوا فى أول الأمر سيف الدين بالجزيرة ، ولكنه لم يرد عليهم لمصالحته كمشتكين والملك الصالح على ما أخذه من بلاد الجزيرة ٠

فأسرع صلاح الدين بالمجىء الى الشام ، وتفادى الفرنجة فى طريقه ، ودخل دمشق من غير محاربة فى ربيع الآخر من سنة ٥٧٠ أكتوبر ١١٧٤ ، حيث قرب اليه الامراء الذين كاتبوه ، وجزى ابن المقدم بمنحه الاقطاعات ٠ وقد أعلن صلاح الدين لأهل دمشق أنه انما جاء لتربية الملك الصالح ، وأنه ينوب عنه فى تدبير دولته ، وكتب الى جميع البلدان الاسلامية بذلك ٠

وليؤكد عزمه على فرض وصايته على الملك الصالح أصدر عملة عليها اسم الملك الصالح مع اسمه ، مع انه قبل ذلك لم يكن وضع اسمه اطلاقا على العملة ، سواء لما كان وزيرا للفاطميين، أو نائبا لنور الدين ، وانما كان يذكر اسم الخليفة الفاطمى ، أو اسم نور الدين مع الخليفة العباسى ٠

وبعد دمشق ، استولى صلاح الدين على عدة مدن منها : حمص ، وهى المدينة التى كان نور الدين أقطعها لعمه شيركوه ، ثم أخذها من نوابه بعد موته ، ثم ملك حماة بجوارها ، وذهب لحصار حلب ٠ وقد كتب صلاح الدين الى الملك الصالح كتابا

يتواضع فيه ، ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : « انما جئت خدمة لك ، ولأؤدى ما يجب من حقك ، فلا تسمع ممن حولك ، فيفسد حالك ٠٠٠ » ٠ ولكن الملك الصالح مع صغر سنه ، كان كأبيه لا يطمئن لابن أيوب ، فرد عليه مهددا واصفا اياه ٠ بأنه كافر بالنعمة وباحسان نور الدين ، وقال له على لسان رسوله ، الذى أشار الى سيفه : « ان السيوف التى ملكتك مصر ستردك » ٠ كذلك كان الملك الصالح قد استنجد بابن عمه سيف الدين غازى بالجزيرة ، الذى جهز جيشا مع أخيه عز الدين مسعود مقدم جيوشه ، وانظم الى جيش جمعه هو من أهل حلب ، بعد ان خطبهم خطبة مؤثرة بكى أثناءها ، ذاكرا لهم أنه طفل يتيم محتاج الى مؤازرتهم ، معددا فضل أبيه عليهم ٠ وفوق ذلك أرسل كمشتكين أموالا عظيمة الى راشد الدين ، المسمى شيخ الجبل زعيم قلاع الشيعة الاسماعيلية بالشام ، لاغتيال صلاح الدين عن طريق الفداوية وهم المخلصون من أتباعه ، ولا سيما أن اسماعيلية الشام كانوا يحقدون على صلاح الدين قضاءه على اسماعيلية مصر ، وان كانوا لا يقبلون القتال الى جانب الزنكيين ، بسبب أن نور الدين أذل شيعة حلب ٠

وقد قدر صلاح الدين خطورة موقفه فى الشام ، لما هاجم فرنجة طرابلس جيشه بتحريض كمشتكين ، مهددين مؤخرته فى حمص ٠ فرفع الحصار عن حلب ٠ وبخاصة أن سنانا كان أرسل اليه جماعة من الفداوية ، تمكنوا من قتل حرسه ، وكادوا يقتلونه ٠ فأرسل يعرض على قواد الملك الصالح الصلح ، على أن يعطيهم حمص وحماة ، وان تبقى فى يده دمشق ، ويكون بها نائبا للصالح ٠ ولكن القواد ظنوا أن صلاح الدين خافهم ٠ فرفضوا الصلح ، وخرج اليه عسكر الجزيرة بقيادة عز الدين يتعقبه ، فقاتلهم صلاح الدين وهزمهم فى معركة حامية قرب حماة ، وتتبعهم الى

حلب ، ليحاصرها من جديد . فلما طال حصاره على حلب راسلوه فى الصلح ، على أن يكون لكل واحد ما بيده ، فأجابهم الى ذلك ورفع الحصار عنها فى سنة ٥٧٠/١١٧٤ .

وبينما هو فى طريق العودة الى دمشق جاءته خلع الخليفة المستضىء ومعها أعلام سوداء ، لتفرق على جوامع مصر والشام ، وكتب له تقليدا بالسلطنة على مصر والشام واليمن مستثنيا من الشام المراكز التى بيد اسماعيل بن نور الدين وهى حلب وأعمالها ، التى أبقاها الخليفة له لأن أباه له آثار عظيمة فى خدمة الاسلام . وقد أكد الخليفة لصلاح الدين مخاطبته بالملك الناصر وهو اللقب الذى ناله من الخليفة الفاطمى العاضد لما تولى وزارته ، ولم يغيره له ربما لأن صلاح الدين هو الذىاختاره ، أو لأنه أصبح يعرف به ، وان كنا نذكر أن نور الدين لم يمنحه غير لقب الاسفهسلار أى القائد . كذلك وصفه فى التقليد بأنه خليل أمير المؤمنين ، وسند الخلافة العباسية ، هادم الشيعة بمصر واليمن . ويبدو أن التقليد جاء بناء على طلب صلاح الدين ، اذ كان قد كتب الى المستضىء كتابا طويلا يذكره فيه بأنه أعاد الخطبة العباسية بمصر وأماكن أخرى ، بقضائه على الخلافة الفاطمية ، ويطلب منه تقليده مصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما يفتحه بسيفه فكان هذا التقليد أول مظهر شرعى لسيادة صلاح الدين ، الذى أتمها بازالة اسم الملك الصالح من الخطبة فى الجوامع ، ومن العملة التى نقش عليها اسمه : « الملك الناصر يوسف بن أيوب »، بجانب اسم الخليفة العباسى : « أبو محمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين » .

وقد قام عليه وقتذاك بدمشق عماد الدين الكاتب (ت ٥٩٧/١٢٠٠) ، الذى ولد باصبهان فى ايران ، وعمل فى

الكتابة الديوانية لنور الدين ، ثم ترك الشام بعد موته الى العراق خوفا من أتباع الملك الصالح لصلته السابقة ببيت أيوب حينما كانوا بالشام . فعمل عماد الدين كاتبا لصلاح الدين فى الشام نائبا عن القاضى الفاضل بمصر ، وأصبح يذهب معه فى كل تنقلاته ، فكان مؤرخا حربيا نقل الينا فى كتبه العديدة أخبار صلاح الدين وانتصاراته . وقد شبه القاضى الفاضل حماس عماد الدين فى الكتابة عن صلاح الدين بقوله انه : « كالزناد الوقاد » .

ولكن صلاح الدين ما لبث أن غادر دمشق الى حلب من جديد ، نتيجة لنقض الملك الصالح الهدنة ، ومجىء سيف الدين غازى — ابن عم الملك الصالح — بنفسه الذى لم يقبل هزيمة صلاح الدين لأخيه عز الدين مسعود . فخرج سيف الدين وقابل صلاح الدين بتل سلطان من نواحى حلب فى شوال ٥٧١/١١٧٦ ، فهزمه صلاح الدين هزيمة منكرة ، واضطره الى الهروب نحو بلاده ، حتى انه لم يصدق أنه نجا بجلده . وبعدها عاد صلاح الدين الى حصار حلب وغزا أعمالها ، وفى أثناء ذلك هاجمه بعض فداوية الاسماعيلية ، وكادوا يقتلونه ، لولا وجود صفائح الحديد حول رقبته . وبعد حصار طويل لحلب ، طلب الملك الصالح الصلح من صلاح الدين ، الذى أجابه اليه . وقبل رجوع صلاح الدين نحو دمشق ، هاجم قلاع الاسماعيلية ، وعلى الأخص مصباب وهى حصن حصين بساحل الشام قرب طرابلس بجبل لبنان . فأرسل اليه سنان يطلب الصلح ، فوافق صلاح الدين ، ربما خوفا من عودتهم الى الاتفاق مع كمشتكين ، أو لحصانة مراكزهم الجبلية . وقبل أن يغادر دمشق تزوج من الخاتون عصمة الدين أم الملك الصالح اسماعيل ، وكانت قد بقيت فيها منذ وفاة زوجها نور الدين ، مما يدل على بقاء أطماع صلاح الدين

فى حكم مملكة ابنها . وقد أضافت المصادر الأوروبية أنه تزوجها لأنه كان يحبها منذ أن كان فى بلاط نور الدين بدمشق ، وأنها سممت نور الدين ، لتسهل له الوصول على السلطنة .

والواقع ان صلاح الدين بقى وراء أهدافه يتربص بحلب ، ولم يكن يبعده عنهـا غير اهتمامه بأحوال مصر ، أو غاراته على بلاد الفرنجة . وكانت شئونها قد اضطربت ، حينما ظهر منافس لكمشتكين اسـمه ابن العجمى من أمراء نـور الدين السابقين المقربين ، بحيث انضم اليه الناقمون على كمشتكين وقربه الملك الصالح . ولكن قتل فداوية الاسماعيلية ابن العجمى ، ربمـا بتحريض كمشتكين ، فاتهم الملك الصالح كمشتكين بقتله ، وقتله فى سنة ٥٧٣/١١٧٧ ، مما جعـل الفرنجة يستفيدون من هذا الاضطراب بمهاجمة ضواحى حلب . ومع ذلك بقى صلاح الدين وفيا لصلحه مع الملك الصـالح ، الذى زادت سلطته بمقتل كمشتكين ، فلم نسمع عن مهاجمته له الى وقت وفاته ، ربما طمعا فى السيطرة عليه بالحسنى ، وليبين للمسلمين وفاءه لابن نور الدين ، واحترامه لتقليد الخليفة الذى استثنى حلب واعمالها .

ولكن لما توفى الملك الصـالح فى ٥٧٧/١١٨١ ، سعى صلاح الدين حثيثا للاستيلاء على حلب ، وكان الصالح قد أوصى بها لابن عمه عز الدين مسعود ، الذى ملك معظم بلاد الجزيرة بعد موت أخيـه سيف الدين غازى فى سـنة ٥٧٦/١١٨٠ ، الا ان عز الدين تنازل عنها لأخيه عماد الدين مقابل سنجار ، ربما خوفا من صلاح الدين الذى هزمه ، أو لأن عماد الدين كان على علاقة طيبة بصـلاح الدين ، الذى كان قد أطمعـه فى الملك . فامتنع عماد الدين عن محاربة صلاح الدين مع أخيه سيف الدين ، الذى حاصره بسنجار لهذا السبب ، وان صالحه بعد ذلك لذلك لما ذهب

صلاح الدين الى حصار حلب فى سنة ٥٧٩/١١٨٣ ، وكان قد شغل عنها زمنا بغزواته فى ديار الجزيرة ، تنازل له عماد الدين عنها بعد مناوشات قصيرة قتل فيها أخو صـلاح الدين المسمى بورى ، على ان يأخذ عماد الدين عوضا عنها سنجار ومدنا وقرى فى الجزيرة ، كان صلاح الدين قد استولى عليهـا أثنـاء غاراته فيها . وقد اعتبر أهل حلب تنازل عماد الدين من سوء السياسة ، بحيث اتهموه بأنه لا يصلح للملك ، وانما لغسل الثياب ، وشيعه أهلها بقولهم : « يا حمار بعت حلب بسنجار » . أما صلاح الدين، فقد كان سروره بالغا بأخذ حلب ، بحيث قال : « الآن قد تبينت اننى أملك البلاد ، وعلمت ان ملكى قد استقر وثبت » . والواقع ان أخذ صلاح الدين لحلب ، حقق أهدافه ببسط سلطانه على جميع بقاع الشام الاسلامية ، وأصبح بفضل سيطرته فيها وفى مصر محيطا بالامارات الصليبية من كل جانب احاطة السـوار بالمعصم ، فقربه ذلك من تحقيق أهدافه فى جهادهم ، بحيث قال فى احدى رسائله للخليفة العباسى : « أمور الحرب لاتحتمل فى التدبير الا الوحدة » .

وفى الوقت ذاته كان صلاح الدين تحت ستار لم الشمل أمام الصليبيين يغير فى ديـار الجزيرة ، ليتم بسط نفوذه على بقـايا الدولة الأتابكية . وساعده على انجاح غاراته ، وجود عدد كبير من الأمراء غير المتحدين ، وكثير من الأكراد بنى جنسـه الساكنين فيها . ويبدو أن صلاح الدين تمكن من فتح بلاد كثيرة فيها ، حتى أنه لم يهتم وقتئذ باغارة الصليبيين على دمشق ، وقال : « يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ، ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم» وقد زادت سيطرته فى ربوعها بقبول عماد الدين أن يكون خاضعا له بسنجار وغيرها من المدن الجزرية ، التى أخذها من صلاح الدين عوضا عن حلب . لذلك أصبح هم صلاح الدين اخضاع عز الدين،

الذى سيطر على بعض أماكن الجزيرة ، ولا يتورع عن التعاون مع الفرنجة ضده . فهاجم صلاح الدين قصبة أملاكه وهى الموصل . الا أنها قاومته بشدة ، اذ كانت مركز البيت الزنكى منذ ظهوره . وقد كان ابن الأثير المؤرخ يشهد استماتة أهل الموصل فى صدهم صلاح الدين ، الذى اضطر الى حصارها عدة مرات . ولكن معظم المسلمين رجوا المصالحة لوجود الصليبيين ، فحثوا عز الدين على طلب الصلح من صلاح الدين ، فأرسل اليه والدته وبعض النساء من بيت زنكى ، كما أرسل مندوبه بهاء الدين بن شداد (م ٦٣٢/١٢٣٤ م) ، الى الخليفة العباسى الناصر لدين الله — الذى تولى الخلافة بعد أبيه المستضىء — للتوسط بينهما ، وان لم يكن الخليفة يبدو راغبا فى التدخل فى هذا النزاع ، اذ ربما كان من صالحه أن يبقى المسلمون فئات متنافسة ، فقد قدم سبعين تقليدا الى ملوك المسلمين وأمرائهم فى سنة ٥٧٠/١١٧٤ . ثم أرسل عز الدين بهاء الدين من جديد الى صلاح الدين . ولكن ابن شداد بدلا من تأييد أميره انضم الى صلاح الدين ، وبقى فى خدمته بعد اتمام الصلح ، حيث رسم لنا لوحة سيرته بريشة الأديب فى كتابه : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، ويظهر فيها مدى اعجابه بشمائل صلاح الدين . ومع أن صلاح الدين رفض الصلح أول الأمر ، حتى انه رد النساء ولم يقبل وساطة بهاء الدين ، ولكنه قبله لما وافق عز الدين أن يسلمه بعض البلاد ، ويخطب له على منابر الموصل ، ويسك العملة باسمه ، وذلك فى سنة ٥٨١/١١٨٥ . أضف الى ذلك أن صلاح الدين مرض ، وتآمر عليه ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان يدعى أنه أحق بالسلطنة منه ، ودعا أهل الشام لتسليمه البلاد عند موت صلاح الدين . ويروى المؤرخون أن صلاح الدين قد يكون اغتاله ، وان أبقى اقطاعه فى حمص لولده . وبذلك

سيطر صلاح الدين على أملاك البيت الزنكى جميعها ، وكان كلما مات أحدهم ضم أملاكه اليه . ويندب ابن الأثير حظ بيت زنكى ، اذ اعتبرهم أصحاب دولة صلاح الدين ، فيقول مؤاخذا صلاح الدين : « قلت ما تبالى يا ابن ايوب أى موتة تموت » . ولا ريب فقد كان ابن الأثير (ت ٦٣٠/١٢٣٣) ، موصلى المولد ، تربى هو واخوته فى كنف الزنكيين ، ولم ينضم لصلاح الدين على عكس معظم مؤرخى عصره ، وقد أفرد لتاريخ بيت زنكى كتابا خاصا يسبح فيه بحمدهم ، عنوانه : « تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » .

كذلك سعى صلاح الدين الى تحسين علاقته بسلاجقة آسيا الصغرى ، حتى لا ينضموا الى الزنكيين ضده ، ولأن بلادهم فى طريق الفرنجة البرى الى الشرق . وفى أول الأمر اضطر الى الاصطدام بهم ، وذهب بنفسه لمحاربتهم ، كما حدث فى سنتى ٥٧٥ — ٥٧٦/١١٧٩ — ١١٨٠ ، وذلك لاسترداد بعض الحصون التى استولى عليها قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان (الثانى) صاحب بلاد قونية «Iconium» بآسيا الصغرى ، منتهزا النزاع بينه وبين الأمراء الزنكيين . وكذلك لما حاصر صلاح الدين الموصل فى سنة ٥٨١ / ١١٨٥ ، هدده قلج أرسلان بالحرب ، كما هدده ترك ايران ، اذ كرهوا قيام دولة كبيرة على حدودهم ، كما أن عز الدين كان يذكر لقلج أرسلان الخطبة فى بلاده احتماء به . ولكن لما عقد صلاح الدين الصلح مع عز الدين ، تحسنت علاقته مع قلج أرسلان ، بحيث نجده يتعاون على فض المنازعات فى دولته بين أبنائه البالغ عددهم اثنا عشر ولدا ، اذ أن قلج أرسلان قام على عادة السلاجقة بتوزيع مملكته بين أولاده ، الذين انتهزوا ضعف والدهم ليستقل كل واحد منهم بناحيته ، حتى ان أحدهم يذهب الى دمشق ، ومن تقديره لصلاح الدين مساعدته على ركوب

حصانه ، كما لاحظ ابن الأثير • ومع ذلك وجدنا صلاح الدين قبل
موته بأيام ، يفكر فى قصد بلاد السلاجقة بآسيا الصغرى لفتحها،
لأنها فى نظره طريق الفرنجة ، وهى أسرع البلاد مأخذا لضعفها •
وقد كان موقف صلاح الدين العدائى من السلاجقة سببا جعل
البيزنطيين ، يسعون الى تحسين علاقتهم معه ، ولا سيما أن اليونان
لم يكونوا ينظرون بعين الرضا عن مجىء الغربيين فى الشرق •

والثابت المحقق أن صلاح الدين قضى على نفوذ الدولة
الأتابكية ، كما فعل بالخلافة الفاطمية من قبل ، وهو الذى لم يكن
يدور بخلده مطلقا — لما جاء مصر — أن يرث أملاك الدولتين ،
ويكون أكبر امبراطورية فى الشرق بزعامته •

الفصل الخامس

حملاته ضد الصليبيين •

رأينا الظروف التى هيأت لظهور صلاح الدين ، والخطوات
المتأنية التى اتبعها فى سبيل تكوين جبهة متحدة من مسلمى
الشرق بزعامته ، بقضائه على الخلافة الفاطمية فى مصر ، لتبقى
بينهم خلافة واحدة هى الخلافة العباسية ، ومحاربته الأمراء
الزنكيين فى الشام والجزيرة الى أن دانوا له بالطاعة • بعد ذلك ،
استغل الوحدة الاسلامية فى قتال الصليبيين ، الذين كانوا الى
هذا الوقت قد استفادوا من ضعف مسلمى الشرق وتشتتهم ،
فاستطاعوا تكوين دويلات قوية فى قلب بلادهم • فكأن الأقدار
أرسلت هذا الكردى الغريب الى بلاد الشرق ، ليحول ضعف
المسلمين فيه قوة ، وتشتتهم وحدة ، ويغير صفحة تاريخهم ،
بحيث أن ما قام به من حروب ضد الصليبيين ، يعتبر رد اعتبار
للاسلام ، الذى كان قد أذل • وقد أصبح رمزه « النسر » ، دلالة
على القوة ، والقدرة على الانقضاض على الأعداء •

وفى أول الأمر ، وهو فى مصر لم ينطلق الى قتال الصليبيين ،
للظروف التى أحاطت به من غضب نور الدين عليه ، حتى انه كان
يفضل وجودهم بينه وبين نور الدين ، فضلا عن ثورات المصريين
ضده • ولكنه لم يتردد فى مقاومتهم لما هاجموا مصر ، بسبب

خوفهم من وحدة المصريين والشوام والجزريين ، وما يترتب على
اتفاقهم من ضياع ملكهم فى الأراضى المقدسة . وقد كان خطرهم
على مصر هذه المرة أشد مما سبق ، اذ يبين الأسقف وليم الصورى،
الذى كان الساعد الأيمن لملك الفرنجة عمورى ، خطة هجومهم
الجديد : وهى أن يزحف الصليبيون على مصر بقوتين من ناحيتين :
أحدها من فرنجة الشام ويونان بيزنطة معا من ناحية الشرق ،
وثانيهما من نورمان صقلية من ناحية الغرب .

فقد اتفق فرنجة الشـام ويونان بيزنطـة على ارسال حملة
بحرية كبيرة الى ثغر دمياط الهام الواقع على فرع النيل المسمى
باسمه ، بلغت ما يزيد على ألف ومائتى مركب ، وذلك فى سنة
١١٦٩/٥٦٥ . وعلى الرغم من غضب مانويل من عمورى ، لقيامه
بحملته البرية الأخيرة على مصر بدونه ، فانه وافق على انفاذ أسطول
قوى الى عسقلان ، لينضم الى أسطول الفرنجة بقيادة اندرونيكس
كونتستفانس «Andronicus Contostephanus» ، كمـا
وصلتهم من نورمان صقلية عدة وافرة من آلات الحصار . كالمجانيق
التى تلقى بالأحجار والنار « النفط » ، والدبابات التى تستخدم
فى نقب حوائط الأماكن المحصنة . فلما وصلت الحملة دمياط ،
بذل صلاح الدين مجهودا هائلا لامداد حاميتهـا ، لتستمر فى
المقاومة . فكان وهو فى القاهرة يرسـل اليها المدد بعد المدد ،
ويسهر الليل ولا ينـام بالنهار ، ويحث الجميع على الجهاد .
كذلك لما سمع نور الدين غزو الفرنجة واليونان على دمياط ، هاجم
حصون الفرنجة بالشام . ولكن الحصـار انتهى بالفشل بعد
استمراره خمسة وخمسين يوما ، بفضل استماتة حامية دمياط
وأهلهـا فى الدفاع ، وهبوب العواصف التى تسببت فى غرق
ثلثمائة مركب ، ولنقص المؤن . فشبه ابن الأثير رجوع الفرنجة

وهم يجرون أذيال الفشل ، ليجدوا بلادهم خرابا يبابا من هجوم
نـور الدين : « بالنعـامة التى ذهبت تطلب قرنين ، فعـادت
بلا أذنين » .

أما الهجوم من الغرب على مصر ، فقد كان على ثغر الاسكندرية
الهام ، قام به وليام الثانى «William II» ، الذى جده روجر
«Roger» مؤسس مملكة النورمان بصقلية ، ويسميه المقريزى
غليالم بن غليالم بن رجار ، وذلك فى سنة ١١٧٤/٥٦٩ . ويبدو
أن سبب تأخير هجوم وليـام الى هذه السـنة ، انشغاله بمهاجمة
دولة الموحدين بشمال افريقيا . وقد اهتم باعداد أسطول هائل ،
جمع نحو خمسين ألف مقاتل ما بين راجل وفارس ، وزوده بالخيل
وآلات الحصار والأزواد . فلما نزل الأسطول على ثغر الاسكندرية ،
أغرق كل ما وجده فيها من مراكب مسافرة ومقاتلة ، ونزل رجاله
الى البر ، وأقاموا على حصار المدينة نحو ثلاثمائة خيمة ، وأخذوا
فى رمى أسوارها بالكباش ، وهى آلات حصـار — كالمجانيق —
مفردها كبش أو كبوش لرمى الحجارة والنار « النفط » . ولكن
أهل الاسكندرية كمثل أهل دمياط ، دافعوا عن مدينتهم بشجاعة
نادرة ، نوه بها معظم المؤرخين فى كتبهم . ولما وصلت عسـاكر
صلاح الدين من القاهرة ، فتحوا الأبـواب وهاجموا خيام الفرنجة
فى الليل ، واقتحموا البحر وأغرقوا المراكب ، فولت بقية المراكب
منهزمة متراجعة الى قواعدها .

وقد كان هجوم الفرنجة على مصر سببا جعل صلاح الدين
يعمل بعزم على تحصينها . فنجده يقوم بانشـاء سلسـلة من
التحصينات فى القاهرة ، وثغور مصر البحرية ، وحتى فى صحراء
سيناء ، ولا تزال توجد بعض آثار تحصـيناته تحت أنظارنا الى

الآن . وفى سبيل انجازها ، لم يبخل بالمال ، وأنفق عليها أموالا طائلة .

ففى القاهرة أعاد بناء السور المحيط بها ، وهو الذى كان سببا فى انقاذ الخلافة الفاطمية من أعدائها عدة مرات ، اذ يذكر أبو شامة المؤرخ كلمة عمارة ، وهى تعنى اعادة البناء . وكان جوهر بناه بطوب نيىء أو لبن (أى لم يحرق بالنار) ، ثم رممه بدر الجمالى وزاد فيه ، الا أنه فى آخر أيام الفاطميين تهدم أكثره ، وأصبح يمكن عبوره فى أى مكان . ويبدو أنه كان عبارة عن سورين سور للقاهرة وسور لمصر (الفسطاط) ، فرأى صلاح الدين لتسهيل الدفاع عنهما بحامية واحدة ، أن يدير عليهما سورا واحدا ، وزاد أن أدخل فيه القطائع والعسكر لذلك اعتبر منشىء القاهرة الحالية ، فبلغ طول السور ٢٩٣٠٢ « ذراع » وحفر حوله خندقا فى بعض أجزائه . وقد قام بالاشراف على بنائه الطواشى قراقوش ، الذى كفل اليه صلاح الدين القيام بالاشراف على تحصينات أخرى فى القاهرة وغيرها ، مما يدل على علو همته ، وذلك فى نحو سنة ١١٧٦/٥٧٢ .

ولعله فى وقت بناء السور ، أمر صلاح الدين نفس الطواشى قراقوش ببناء القلعة ، وان كان النقش الذى وجد على بلاطة بداخلها ، يبين أنه أمر بانشائها فى سنة ١١٨٣/٥٧٩ ، وهو بالأحرى تاريخ يدل على أن قدرا كبيرا منها قد أنجز بناؤه فى هذه السنة . ولا ريب أن صلاح الدين أخذ فكرة بنائها من قلاع الفرنجة بالشام ، أو من قلاع الاسماعيلية بنواحى جبل لبنان ، ولا يمكن أن يكون قد أخذها من الفاطميين ، الذين لم يبنوا القلاع، ربما لاضطراب أحوال دولتهم . وقد بنيت القلعة على نشز مرتفع بجبل المقطم فى وسط السور ، فعرفت باسم قلعة الجبل ، بقصد

أن تكون دار مملكة مثل المدن التى أقامها الحكام قبله كالفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ، تشمل دور سكنه ، ومعسكرات جيشه ، ودواوين دولته . فكان قراقوش يستحث رجاله لانجاز بنائها ، وكان أسرى الفرنجة من حروب صلاح الدين بالشام يقومون بنقل الحجارة من الأهرامات المهدمة ، أو يجلبونها من تحت الصخور ، وينشرون الرخام ، ويحفرون الخنادق . ولما شغل صلاح الدين بغاراته على الفرنجة ، وبنزاعه مع الزنكيين فى الشام والجزيرة ، لم يعد يهتم بانجاز بناء القلعة ، بحيث لم ينته بناؤها الا فى عهد حفيده الكامل سنة ١٢٠٧/٦٠٤ . ولكثرة ما حدث فيها من تغيير فى عهد سلاطين المماليك ومحمد على باشا ، لم تعد تعرف أجزاؤها الأصلية ، التى بنيت فى عهد صلاح الدين . ومن الجدير بالذكر ، وجود صورة صقر على القلعة ، الذى هو رمز لصلاح الدين .

وبنى صلاح الدين على النيل غربى مصر بالجيزة جسرا (أو قناطر) ، عبارة عن أقواس جمعت حجارته من الأهرامات ، فكان كجبل ممدود من الأرض ، يقصد به أن تسلك عليه عساكره فى أى وقت . كما بنى فى شمال القاهرة فى المكان الهام الذى عرف للعرب أيام الفتح باسم أم دنين ، ثم باسم المقس لوجود الماكس أى جابى الضرائب ، برجا هائلا عرف بقلعة المقس أو قلعة قراقوش .

وفوق ذلك اهتم صلاح الدين بتحصين ثغور مصر البحرية على ساحل البحر الأبيض ، لتتمكن من صد الحملات البحرية المعادية ، ولا سيما بعد تلك الحملات الهائلة التى هاجمتها . فقام بتحصين دمياط على فرع النيل ، وكانت قد انتعشت وأصبحت ثغرا هاما ، لأن فرع دمياط أخذ محل الفرع البلوزى ـ نسبة الى بلوزيم

«Pelusium» القديمة وهى الفرما فى عهد العرب شرقى دمياط ـ الذى كان آخذا فى الاضمحلال • فكانت دمياط فى أيام قوة الخلافة الفاطمية دار صناعة للسفن الحربية ، تخرج منها الأساطيل للجهاد ، فيكون لها ببلاد العدو صيت ورهبة • فأمر صلاح الدين بتقوية السلاسل الحديدية الثقيلة ، التى كانت تشد بين برجين من الحجر ، حتى لاتستطيع المراكب المعادية أن تدخل الميناء • وفى سبيل استكمال وسائل الدفاع عن البرجين : رتب المقاتلة فيهما ، كما شدت مراكب الى السلسلة ليقاتل عليها • كذلك أمر بترميم سور المدينة ، الذى تهدم بعضه من غارة الفرنجة عليه ، وزاد فيه فبلغ طوله ٤٦٣٠ ذراعا • يضاف الى ذلك ، أنه اهتم بعمارة قلعة تنيس وسورها ، الذى يرجع بناؤه الى أيام العباسيين، وهى جزيرة فى وسط الماء مجاورة لبر دمياط اشتهرت بمرفئها التجارى ، الذى كان يرابط فيه أيام انتعاش دولة الفاطميين ألف مركب فى بعض الأحيان • ولما كثرت غارات الفرنجة عليها ، أصدر صلاح الدين أمره باخلائها ، ونقل أهلها الى دمياط سنة ١١٩٢/٥٨٨ ، وجعلها للمقاتلة فقط • أما الاسكندرية ، وهى المدينة الكبرى على ساحل البحر الأبيض ، وكانت هى الأخرى دار صناعة سفن فى أيام الفاطميين ، فانه أمر برمى أكثر من أربعمائة عمود بشواطىء البحر من عواميد رومانية كانت حول عمود السوارى ، بقصد أن تعوق العدو اذا قدم ، كما جدد أسوارها وأحاطها بالخنادق • وقد كان صلاح الدين شديد الاهتمام بهذه التحصينات ، فسافر الى كل من دمياط والاسكندرية ، ليشرف عليهما فى سنة ١١٨١/٥٧٧ ـ ١١٨٢ ، وبلغ ما أنفقه على تحصينات دمياط وحدها مليون دينار • كذلك وضع الأجناد البطالين ، ربما الخصيان أو المذنبين • فى الثغور بالساحل لحراستها ، واهتم بمراقبة السفن الداخلة والخارجة الى مصر ،

فاعد أمناء للصعود الى المراكب لتقييد أسماء الركاب الوافدين وصفاتهم وأسماء بلادهم •

واهتم أيضا بعمل مراكز محصنة أو نقط حراسة فى شبه جزيرة سيناء ، وهى المنطقة الصحراوية التى تفصل بين مصر ومملكة اللاتين بفلسطين ، الممتدة الى حدود مصر فى صحراء النقب ، وجاءت جميع غزوات الفرنجة لمصر عن طريقها • فأمر بانشاء سلسلة من القلاع ، أهمها قلعة صدر فى قلب سيناء شرقى السويس فى طريق آيلة ، ولا تزال آثارها موجودة الى الآن، وزودها بالصهاريج لحفظ الماء ، كما كانت القوافل تخرج اليها من القاهرة بانتظام •

ومنذ أن توفى نور الدين ، شنها صلاح الدين حربا شعواء على الصليبيين ، بشكل لم يسمع به من قبل ، ولا سيما أنهم كانوا يريدون أن يستفيدوا من ظروف الاضطراب التى سادت بوفاة نور الدين عدوهم اللدود • فهاجم صلاح الدين حصونهم المتفرقة حصنا بعد حصن فى كل مكان ، ولم يمكنهم مما يريدون • وقد جمع لذلك جنودا من الكرد والترك ، والأعاريب ، ومن المتطوعة الذين بلغ عددهم أحيانا عشرة آلاف • ويبدو أنه فى أول الأمر تردد فى استخدام المصريين ، وبعد ذلك كنا نسمع دائما عن الأجناد المصريين • فكان ينظم عسكره فى أطلاب جمع « طلب » ، وهو فى اللغة التركية المقدم الذى له علم وبوق ، كما كان يكثر من فرق القراغلامية أى الضابطية ، ربما ليحرسوا له الطرق التى يسلكها• كذلك اهتم بآلات الحرب وصنعها ، فأخرج عددا كبيرا من المنجنيقات برسم الغزاة ، ونجد أن مؤلفا مجهولا لعله مصرى الجنسية ، لأنه يذكر صانع اسمه الحسن الأبرقى الاسكندرانى،

كان يمارس مهنته فى صنع الأسلحة أيام وزارة ضرغام ، يؤلف له عن الفن الحربى ، وأنواع السلاح . وقد استحق صلاح الدين بحماسه فى جهاد الصليبيين ، تلقيب الخليفة له : بمحيى دولة أمير المؤمنين ، أما هو فكان ينقش على العملة عبارة : الملك الناصر صلاح الدنيا والدين .

وقد كان همه الأول من هذه الغارات حفظ طرق تحركاته بين مصر والشام ، ليحقق أهدافه فى توحيد جبهة المسلمين بزعامته ، وان اضطر الى عقد هدنة مع الفرنجة سنة ١١٧٥/٥٧١ ، ليتفرغ لمشاكله العاجلة مع الأمراء الزنكيين . ولكنه بعد ذلك عاد الى الاغارة على الساحل فى فلسطين سنة ١١٧٧/٥٧٣ ، فلما وصل الى عسقلان على البحر ، وجد معظم فرنجة مملكة بيت القدس فى انتظاره ، فهزموه هزيمة شديدة ، واستشهد كثير من المسلمين ، ونجا هو بأعجوبة اذ كادوا يأخذونه أسيرا . وقد كتب صلاح الدين الى أخيه توران شاه يبين مدى الخطر الذى تعرض له فى هذه الغارة بقوله : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما أنجانا الا الله سبحانه منه لأمر يريده سبحانه » . ولكن ما لبث أن عاد صلاح الدين الى الانتصار على الفرنجة ، لما أغاروا على دمشق فى السنة التالية ١١٧٨/٥٧٤ ، رجاء أن يستفيدوا من نصرهم السابق عليه . كما هاجم حصونهم واستولى على بعضها فى سنة ١١٧٩/٥٧٥ ، مما جعل ملك بيت المقدس بودوان (أو بلدوان) الرابع «Baudouin VI» — لا يسميه العرب باسم — الذى تولى بعد عمورى ، يسعى الى عقد هدنة معه فى سنة ١١٨٠/٥٧٦ . ولما توفى بودوان الرابع ، وكان مصابا بمرض الجذام ، ترك الملك بعده لابن أخته سيبلا «Sybella» ، فعرف ببودوان (أو بلدوان) الخامس «Baudouin V» . وكان صغيرا فتولى الوصاية عليه أمير طرابلس الفرنجى ، الذى يسميه العرب القومص الصنجيلى

ريموند «Comte Raymond III : de Saint Agilles» فجدد ريموند الهدنة مع صلاح الدين فى سنة ١١٨١/٥٧٧ .

هذه الهدنة نقضها أحد الفرسان فى مملكة بيت المقدس المسمى رينو دى شاتيون «Renaud de Châtillon» أو أرولد «Arauld» ، الذى سماه العرب البرنس أرناط فقد كان هذا الفارس من أشهر فرسان هذه المملكة ، يملك أهم قلاعها فى صحراء النقب المجاورة لمصر ، وبخاصة كرك — المعروفة بالكرك — القائمة على قمة جبل تحيط بها أودية بطرف الشام شرقى البحر الميت ، فكانت تعترض طريق مصر الى الشام ، ولا يمكن أن تعبره قافلة الى مصر أو بالعكس حتى تمنعها . وكان نور الدين يغير عليها باستمرار ، ليبقى على صلته بجيشه فى مصر ، ويريد من صلاح الدين أن يشترك معه فى أخذها كما ذكرنا .

ولكن صلاح الدين عمل من ناحيته — منذ استقر فى مصر — على أخذ قلعة أيلة فى سنة ١١٧١/٥٦٦ ، وهى من حصون امارة الكرك القوية وتقع على شاطىء البحر الأحمر « القلزم » فى أول الشام ، وتسيطر على طريق مصر البرى الى الحجاز ، عبارة عن محطة للقوافل وميناء غطته الرمال ، وان عرفت أيضا بعقبة أيلة لوجود معبرة على جبل بين أيلة والأرض المجاورة لها بنيت زمن الطولونيين ، وغلب اسم العقبة على الاسم القديم فى وقتنا . وكان النبى قد فرض على أساقفة أيلة الجزية فى عام ٩/٦٣٠ ، وبقيت فى أيدى المسلمين الى أن جاءها فرنجة الكرك واستولوا عليها ، وأقاموا فيها قلعة ، وحصنوا جزيرة صغيرة أمامها . فكان بسبب سيطرة الفرنجة على أيلة أن تحول طريق حج المسلمين من مصر الملاصق للبحر الأحمر ، الى قوص وسط الصعيد ، ومنها الى عيذاب — بليدة على البحر الأحمر — ومنها بالمراكب الى جدة .

فاستولى صلاح الدين على أيلة بعد حصارها من البر والبحر ، حيث حمل مراكب خفيفة على ظهور الجمال وألقى بها فى البحر الأحمر ٠ وكانت أغلب المراكب التى تستخدم فى هذا البحر خفيفة تعرف بالجلاب مفردها جلبة ، لا يدخل فيها مسمار البتة ، لأن مياهه تأكلها ، وانما هى مخيطة بالحبال ٠ وقد حاول أمير الكرك استعادة ايلة ، بأن أقام عسكره بعض الوقت فى تبوك بجوارها سنة ١١٨١/٥٧٧ ، ولكن حامية المسلمين فيها صدتهم ، فكان يهاجم القوافل الذاهبة لتموينها ٠ وقد كان خوف صلاح الدين من نور الدين سببا فى أنه لم يشترك فى الاغارة معه على الكرك ، ولكنه أغار عليها بمفرده حتى لايغضبه ٠ وبعد موت نور الدين عاد الى الاغارة عليها بشدة ، وكان يتوق الى الاستيلاء عليها ، ليحفظ حرية تحركاته بين مصر والشام ٠

وعلى الرغم من عقد صلاح الدين الهدنة مع مملكة بيت المقدس ، فان أمير الكرك عاد الى الهجوم على القوافل المارة بين مصر والشام ، كما أنه انشأ مراكب خفيفة وحملها على الجمال ، ودفعها فى البحر مشحونة بالمقاتلة ، الذين أخذوا يهاجمون الحجاج المسلمين بميناء عيذاب فى سنة ١١٨٢/٥٧٨ ، وأتوا فيها بحوادث شنيعة : فأخذوا مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة ، ومركبين كانا مقبلين بتجارة من اليمن ، وأحرقوا المؤن التى كانت معدة لميرة مكة والمدينة ، وقتلوا فى البر قافلة حجاج كبيرة آتية من قوص ٠ وبعد ذلك هاجموا ساحل العرب ، وكانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ، واخراج جسده الشريف من القبر ٠ فلما سمع صلاح الدين بذلك ، أسرع بارسال المراكب من مصر والاسكندرية الى البحر الأحمر مشحونة بمتطوعة منهم بعض المغاربة ، فلحقوا بالعدو وأطلقوا سراح المأسورين من عيذاب ، ثم ذهبوا الى ساحل العرب وأدركوهم وأسروهم وهم على مسافة يوم واحد من المدينة ٠

وتصادف ذلك مع أشهر الحج ، فسيق بعض الأسرى منهم الى منى للتضحية بهم ، كما أرسل بعضهم الى مصر ، حيث يصف لنا الرحالة ابن جبير ــ وهو شاهد عيان ــ دخول أسرى الفرنجة الى مصر فى يوم مشهود : فقد تجمع عدد كبير من المصريين على جانبى الشوارع لمشاهدتهم وهم راكبون على الجمال ، ووجوههم الى اذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق ٠

كذلك خرج صلاح الدين من القاهرة فى سنة ١١٨٢/٥٧٨ ، حيث لم يعد بعدها الى مصر أبدا ، وقضى بقية حياته مجاهدا فى بلاد الشام الى وقت وفاته ٠ وكان قد خرج بقصد الاغارة على حصون الفرنجة ، وبخاصة امارة الكرك ، فقصدها بالغارة كرة بعد أخرى وأوشك على أخذها فى احدى الغارات ، حتى اضطر أمير الكرك الى طلب الصلح ، فهادنه لانشغاله وقتذاك بحروبه مع الزنكيين ، فعادت القوافل تتردد بين الشام ومصر بدون عائق ٠

الواقع ان جهاد صلاح الدين ضد الفرنجة ، لم يقف عند غاراته عليهم فى البر ، وانما أيضا فى البحر ٠ وقد بذل فى سبيل ذلك جهدا رائعا ، ولا سيما أن الفرنجة كانوا يحتلون ساحل الشام كله ، وكان الأسطول الذى وجده فى مصر ، قد أهمل شأنه فى آخر أيام الفاطميين ، مما هيأ للفرنجة الفرصة للهجوم على موانىء مصر ، مثل : دمياط والاسكندرية وتنسيس ، التى أغاروا عليها فى سنوات ١١٧٥/٥٧١ و ١١٧٧/٥٧٣ و ١١٨٠/٥٧٦ ٠

فأفرد صلاح الدين للاسطول ديوانا خاصا عرف : « بديوان الأسطول » ، ليقوم بالاشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها ، ودفع نفقة العاملين عليها ، وخصص لذلك بعض مصادر المال من الخراج والزكاة والاقطاعات وغير ذلك ، كما عين أشجارا لاتحصى

من السنط فى البهنساوية والأشمونين والأسيوطية والأخميمية
والقوصية . فعاد النشاط الى دور صناعة المراكب فى مصر
والقاهرة ، وهى التى أحرقت أثناء حصار الفرنجة أيام شاور ،
كما أمر بعمارة أسطول الاسكندرية . وقد جعل صلاح الدين
الخدمة فى الأسطول بالاجبار ، اذ أصدر أمرا بأخذ الرجال
للخدمة فيه . وبذلك تضاعف الأسطول فى عهده ، وبلغت قطعه
الرئيسية ستين شينيا « أو شونة » ، وهى مراكب طوال مزودة
بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، مع أنها لم تكن تتعدى عشر شوانى
آخر أيام الفاطميين .

فكان الأسطول المصرى يخرج للغزو والكشف ، ويقدر
الناس جهاد المقاتلة فيه ، ويتبركون بدعائهم ، ويسمونهم :
« المجاهدون فى سبيل الله ، والغزاة فى أعداء الله » . ففى سنة
١١٧٦/٥٧٢ ، أغارت أساطيل الاسكندرية ودمياط ، وجاءت
بالأسرى ، وفى سنة ١١٧٨/٥٧٤ ، أغار الأسطول على عكة
« عكا » ، ونطح المراكب الموجودة فى الميناء فحطمها : مما لم يعهد
مثله من أسطول اسلامى من قبل ، كما أنه فى سنة ١١٨٤/٥٨٠،
خرج الأسطول للغارة وكان به عدد كبير من الحراريق واحدها
حراقة ، وتستعمل فى حرق سفن العدو ، اذ كانت مزودة بالنفط
الذى يرمى بالمنجنيقات أو بالسهام أو فى القوارير .

وبعد أن اطمأن صلاح الدين الى اتحاد مسلمى الشرق بزعامته
بقبول أمراء الزنكيين الخضوع له ، والمحاربة معه اذا دعاهم كما
كانوا يفعلون أيام نور الدين ، نجده يتوجه الى قتال الصليبيين
بعزيمة لا تلين . ويبدو تحمسه للجهاد من قوله فى احدى مكاتباته
للخليفة . انه يود أن تعود الكنائس مساجد ، والمذابح معابد
للمسلمين ، والصليب المرفوع حطبا من المواقد ، والناقوس الصاهل

أخرس . وكان فى أثناء حصاره مدن الجزيرة ، قد نذر ان خلصه
الله من مرضه ، أن يصرف بقية عمره فى الجهاد ، ويقوم بفتح
بيت المقدس .

ولحسن الحظ أن همة صلاح الدين اتجهت الى تخليص
فلسطين أو فلسطين ، وهى الأراضى الواقعة بين الشام ومصر ،
ونص القرآن على أنها أرض مباركة فى قوله : (الأرض التى باركنا
فيها للعالمين) ، فقد كانت قصبتها مقدسة للمسلمين ، عرفت لهم
ببيت المقدس أو القدس أو حتى بالمسجد الاقصى الذى ورد ذكره
أيضا فى القرآن : ففيها وجدت الصخرة المقدسة ، وهى حجر لونه
أزرق ، لم يطؤها أحد برجله أبدا غير أقدام اسماعيل ، الذى ينسب
اليه العرب ، لما مشى عليها وهو طفل ، فهى فى قداستها تشبه
الحجر الأسود بمكة . ثم انها أول قبلة للمسلمين قبل أن تحول
القبلة الى الكعبة ، وموضع الاسراء بنبى الاسلام بأن رفعه الله منها
الى السماء ، لذلك اعتبر المسلمون مدينة القدس ثالث بيوت الله
فى المكانة بعد مكة والمدينة . وقد كان المسلمون اذا جاء موسم
الحج ، يذهبون اليها اذا لم يستطيعوا الذهاب الى مكة ، ويضحون
هناك كما هى العادة ، ويزورون بيت لحم بليدة مجاورة ، ويصلون
فى مسجدها الذى أقيم على قبرى داود وسليمان ، حتى انه فى
بعض السنين حج اليها أكثر من عشرين ألف شخص . كذلك
يروى المؤرخون أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، الذى
أنشأ على قبة الصخرة مسجدا فخما ، دعا الى الطواف ببيت المقدس،
ومنع من الحج الى مكة من أجل فتنة ابن الزبير ، ولذا ربما كانت
عادة الحج الى بيت المقدس ترجع الى وقته . والخلاصة أن فلسطين
التى احتلها الصليبيون أرض مقدسة للمسلمين ، لهم فيها ذكريات
دينية لا تقل عن ذكريات النصارى ، تدعوهم الى الجهاد فى سبيل
استعادتها ، والانتقام من محتليها .

وساعد على ذلك اختلاف الفرنجة بوفاة ملكهم الصغير بودوان الخامس وانتقال الملك منه الى أمه « سيبيلا » «Sybella» ، التى تزوجت فارسا قدم الى الشام من أوروبا ، اسمه جى دى لوسينيان «Gui de Lusignan» ، وهو الذى يسميه المؤرخون المسلمون جوى أوكى أو ابن غتم ، فوضعت التاج على رأسه وأعلنته ملكا على الفرنجة ، وأطاعه رجال الدين وفرسان الاسبتارية والداوية . فجر ذلك الى عداء بينه وبين أمير طرابلس ــ القمص ــ الذى كان يطمع فى أن يكون ملكا للفرنجة ، لتضحياته الكثيرة فى سبيل قضيتهم : فقد كان أمضى فى أسر نور الدين اثنتى عشرة سنة ، لولا أن أطلقه كمشتكين لقاء فدية كبيرة ، ليحارب به صلاح الدين، كما أن عمورى ــ مرى ــ كان قد اختاره وصيا على ابنه بودوان الرابع ، وبقى فى الوصاية أيضا على بودوان الخامس بعده كما ذكرنا . فما كان من أمير طرابلس ، الذى كانت تنقصه صفات الديبلوماسية ، الا أن حث صلاح الدين على قصد ملك الفرنجة . ففرح صلاح الدين بهذه الفرصة ، ليحقق ما تمناه فى رسائله للخلافة العباسية من استخلاص الأراضى المقدسة ، فرد على أمير طرابلس يعده بأن يجعله ملكا للفرنجة قاطبة ، وأطلق بعض أسراه عنده ، ليقنعه بحسن نيته نحوه . فيقول ابن الأثير : « وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم ، واستنقاذ البيت المقدس منهم » .

ويحدد عماد الدين الكاتب هجوم صلاح الدين فى فلسطين بسنة ١١٨٧/٥٨٣ ، وسماه عودة الى فتح الشام ، واعتبره أفضل من فتحه الأول ، بسبب أن المسلمين كانوا قد وهنوا . وقد جمع صلاح الدين مجاهدين من جميع بلاد المسلمين ، وبخاصة عساكر الجزيرة ومصر والشام ، وان لم يقم بالغزو ــ حيث كان يقيم بالشام كما ذكرنا ــ الا عندما وصل العسكر المصريون ، حيث يبدو

أن المصريين أقبلوا على الجهاد معه ، وأنهم أصبحوا قوة هائلة فى حروبه مع الفرنجة . فبدأ بالاغارة على قلاع مير الكرك ــ أرناط ــ لوجودها فى طريق وصول الأمداد من مصر ، ولأن هذا الأمير كان قد عاد الى الاغارة على قوافل المسلمين ، فهاجم صلاح الدين قلعتى الكرك والشوبك بشدة لم تعرف قبل . كذلك هاجم طبرية وفتحها ، وهى بليدة مطلة على البحيرة المعروفة باسمها بجوار القدس ، مع أنها كانت فى غاية الحصانة ، لها سور وحصون وسط البحيرة ، وان لم يتمكن من أخذ قلعتها .

وقد قدر الصليبيون خطر هجمات صلاح الدين هذه المرة عليهم ، وضرورة اتحادهم فى محاربته ، لوقف خطره . فجمعوا مشورة من فرنجة الشام وأنبوا أمير طرابلس على موقفه الودى من صلاح الدين ، وهددوه بالحرمان وفسخ زواجه ، مما جعله يقبل الانضمام اليهم . ودفعه الى ذلك أيضا استيلاء صلاح الدين على طبرية سابقة الذكر ، وكانت سكنه منذ زواجه من صاحبتها أيام وصايته على مملكة الفرنجة . وقد كان أمير الكرك أشد أمراء الفرنجة ثقة فى النصر على المسلمين ، فقال : « ان النار لا يضرها كثرة الحطب » . ولكن لا يبدو أن أمير أنطاكية اشترك معهم ، وهو بوهمند الثانى «Bohêmond II» أو Boemund ــ البيمند أو بيمند ــ مع أنه حسب قول المقريزى ، كان تابعا لملك بيت المقدس ، فسماه : أبرنس ملك الفرنج بأنطاكية ، ربما لبعده ووجود صلاح الدين فى طريقه ، وان كان من جهته دائم الاغارة على مراكز المسلمين المجاورة لامارته .

فخرج ملك الفرنجة وفرسانهم ، بجيوش عديدة بلغت خمسين ألفا الى طبرية يحملون شعارهم المقدس صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم ، وهو عبارة عن صليب من الخشبة التى صلب

عليها المسيح ، محلى بالذهب والجوهر • فلما قاربوها رحل
صلاح الدين عنها ، ليستدرجهم الى مكان صخرى مجاور ، بعد أن
سيطر على مشارب المياه ، وجعل الأردن وراءه • فتقابل الجيشان
عند قرية حطين أو حطين ، وقاتل المسلمون بشدة وهم يصيحون
صيحة رجل واحد : الله أكبر ، وعلى رأسهم صلاح الدين يطوف
بينهم ، ويحرضـهم على القتال • فلما أحس أمير طرابلس بفوز
صلاح الدين انسحب الى بلده ، حيث لم يلبث الا أياما قلائل
حتى مات • وحين حمل المسلمون على خيمة الملك وتمكنوا من
اسقاطها ، أسرع الفرنجة جميعا بالتسليم • فيقول ابن الأثير عن
انتصار المسلمين : « فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحدا ،
ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا » •

مما لاشك فيه أنه لم يحدث أن شفى المسلمون غليلهم من
الفرنجة منذ مجيئهم الى الشام مثل هذه المرة ، بحيث سموا موقعة
حطين : بوقعة حطين المباركة • ويقول السياسى الانجليزى المعروف
تشرشل «Churchill» ، فى مذكراته عن عظماء التاريخ ممن
أسهموا فى الحروب الصليبية ، ان سبب نصر المسلمين راجع الى
كثرتهم العددية • ولكنا نظن أن نصرهم راجع الى تنظيم قواهم على
يد صلاح الدين ، واتحاد هدفهم بالعمل على استنقاذ أراضيهم
المحتلة ، على عكس الصليبيين ، الذين أصبحوا عناصر يسودها
الاختلاف ، ليس لها أهداف محددة غير الطمع والتنافس فيما بينهم •
هذا فضلا عن التكتيك الحربى الرائع الذى استخدمه صلاح الدين ،
بفهمه للأرض التى يحارب عليها ، بحيث أن الفرنجة بلغوا من
العطش حدا لم يستطيعوا معه الحركة ، فسلموا وعلى رأسهم ملكهم
وأمراؤهم •

وبعد هذا الظفر العظيم ، جلس صلاح الدين لعرض الأسرى
الكثيرين ، وهم يتهادون فى القيود أمامه كالسكارى من العطش ،

حيث كان العسكرى المسلم يربط فى الحبل الواحد ثلاثين أو أربعين
منهم • فلما أحضر ملك الفرنجة أمامه ، أجلسه على يمينه ، وهدأ
من روعه ، وأعلمه عن طريق الترجمان أن عادة الملوك جرت على
ألا يقتل الملك ملكا مثله ، وقدم له ماء مثلوجا ـ وكان صنع الثلج
معروفا عند المصريين ، وكانوا يأخذونه معهم فى قيظ مكة وفى
الحروب ـ ثم أخذ فى تأنيب أمير الكرك لسخريته من نبى الاسلام ،
وقال له : « ها أنا انتصرت لمحمد » • ولما كان صلاح الدين قد نذر
دمه ان وقع فى يده لنقضه الصلح معه ، رفض أن يشربه الماء ،
وضربه بالسيف على كتفه ، وقطع رأسـه وأطعم جثته للكلاب •
كذلك عمل على ضرب أعناق فرسان طائفتى الداوية والاسبتارية
على ألا يبقيهم فى الأسر ، لأنهم كانوا يمثلون التعصب المسيحى ،
اذ كان معظمهم من رجال الدين المحاربين ، بحيث قال أبو شامة
عنهما : « انه ما جرت عادتهما بالمفاداة ، ولا يقلعان عن المعاداة ،
ولا يخدمان فى الأسر » ، وان استثنى صـلاح الدين منهم مقدم
الداوية ، الذى يبدو أنه شفع له ملك الفرنجة • وكان فى حضرته
جماعة من أهل العلم والمتصوفة ، فسأل كل واحد منهم فى قتل
واحد ، فمنهم من قبل ومنهم من رفض أن يلطخ يده بدماء الأسرى •
ثم سير الأسرى الباقين الى دمشق ليودعوا فى سـجونها ، ومعهم
شعارهم المقدس صليب الصلبوت منكسا ، ولكنه بعد ذلك أطلق
سراح أغلبهم بخاصة أكابرهم بعد أن افتدوا أنفسهم بالمال أو بتسليم
قلاعهم ، على شريطة ألا يعودوا الى قتاله ، كما باع بعضهم حتى ان
أحد الفقراء بدمشق اشترى أسيرا بنعل • وقد عوتب صلاح الدين
على بيعه الأسرى ، فقال : « أردت هوانهم » •

ومن ثم كانت هذه الوقعة العظيمة مقدمة لانتصارات حربية
هامة على فرنجة الشام ، بسبب أنهم فقدوا معظم رؤسائهم • فقد
كانت سببا فى فتح بلاد الساحل ، ويقصـد بها البلاد الواقعة

على ساحل الشام ، مثل : عكة (أو عكا) وغزة وحيفا وصيدا
وبيروت وعسقلان · كذلك فتح بعض الأماكن القريبة من القدس ،
مثل : طبرية والرملة والخليل وبيت لحم ونابلس (أو نابلوس)،
وفى هذه الأخيرة قاتل المسلمون فرقة من اليهود كانت تدافع عنها
مع النصارى ، فقتلهم المسلمون عن بكرة أبيهم ·

وبعد ذلك ذهب لحصار القدس على رأس عساكر مصر ،
كما يذكر عماد الدين الكاتب ، مما يبين أن صلاح الدين أصبح
يعتمد عليهم فى المعارك الحاسمة ، ولا سيما أنهم كانوا قد تفانوا
فى الدفاع عنه لما أخذه الفرنجة أيام الفاطميين في سنة ٤٩٢/١٠٩٨·
ومع أن جى كان فى الأسر ، فان البطريرك هرب الى القدس من
حطين ، وأصبح مركزه فيه أقوى من ملك · فلما جاء صلاح الدين
القدس استمر يطوف بأسواره خمسة أيام لينظر من أين يأتيه ،
لحصانته ومناعته ، ولأنه كان على قمة جبل ، والأرض المحيطة به
غير مستوية ، فنصب عليه منجنيقات كثيرة من ناحية الشمال ،
وتحت ستار رميها الشديد ، تمكن جنده من الوصول الى الخندق ،
ونقب السور · عندئذ طلب البطريرك الأمان لفرنجة القدس ،
فرفض صلاح الدين ، لرغبته فى فتحه عنوة بحد السيف بقصد
الانتقام مما فعله الفرنجة بالمسلمين من القتل والسلب لما ملكوه ·
وبعد ذلك ، لما هدد الفرنجة بقتل أسارى المسلمين لديهم ، وبقتاله
قتالا شديدا ، قبل منحهم الأمان بناء على مشورة قواده · وقد
اشترط صلاح الدين عليهم أن يرحلوا من البلدة فى أربعين يوما ،
وأن يتركوا خيلهم وأسلحتهم ، وأن يدفع كل رجل عشرة دنانير ،
وكل امرأة خمسة ، وكل صغير دينارين ، ومن امتنع عن دفع المال
يصبح من رقيق المسلمين · ونحن لا نجد شروطا لليهود ، ربما
لأن الفرنجة لم يكونوا يسمحون ببقائهم معهم بالقدس ، أو تقليدا
لما حدث أيام عمر بن الخطاب ، الذى منح الأمان للنصارى دون

اليهود · وبذلك تحققت معجزة استرداد القدس على يد عسكر
مصر من دون عسكر المسلمين ، بحيث يقول عماد الدين الكاتب :
« ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار » ·

وشرع الفرنجة فى الخروج من القدس ، وكان عددهم كبيرا
يبلغ مائة ألف ، فكانوا يذهبون الى صور على الخصوص ، وهى
ميناء لهم على البحر الأبيض بجوار بيروت · وتصف لنا المراجع
العربية حسنات صلاح الدين نحو فرنجة بيت المقدس فى محنتهم ،
فكان يسمح لكثير منهم بالرحيل دون دفع الفداء ، كما ترك
البطريرك يأخذ نفائس الكنائس ، دون أن يعترض على ذلك ·
وتؤيد بعض المراجع بما فيها الصليبية حسن معاملة صلاح الدين
لزوجات كبار أسراه فى حطين ، ولا سيما زوجة الملك جى ،
فتركهن يرحلن بكل ما يملكنه من جوار وخدم ومال ، وأعادهن
الى أزواجهن · وعلى النقيض أساء التصرف مماليكه الكرد والترك ،
الذين أقامهم بأبواب المدينة ، فلم يراعوا الأمانة ، وقبلوا الرشوة ·
وأخذوا الأموال لأنفسهم · ومع ذلك بقى آلاف من الفرنجة من
رجال ونساء وأطفال ، لم يتمكنوا من دفع الفداء ، فأصبحوا من
رقيق المسلمين · كذلك قبل صلاح الدين بقاء النصارى الشرقيين،
على أن يدفعوا الجزية ويدخلوا فى ذمة المسلمين ، وهذا يدل على
أن صلاح الدين لم يكن يحارب دينا ، وانما يحارب الغزاة الأجانب·

وقد كان تسليم القدس ليلة الاسراء يوم الجمعة ٢٧ من
رجب سنة ٥٨٣/٢ من ديسمبر سنة ١١٨٧ ، بعد أن بقى فى
أيدى الفرنجة احدى وتسعين سنة ، حيث عرف فتحه : بالفتح
الأكبر · ولم يرض صلاح الدين أن يدخله الا ومعه مندوبون من
أطراف البلاد الاسلامية ، كما لم يتخلف شخص ذو حيثية من
المثول معه ، وبخاصة العلماء والمتصوفة الذين كان صلاح الدين

يميل اليهم ، فدخلها ومعه زهاء عشرة آلاف عمامة • فجلس
صلاح الدين للتهنئة وحوله الشعراء وأكثرهم من المصريين ،
ينشدون قصائد المديح ، التى عرفت بالقدسيات نسبة الى يوم
فتح القدس • وقد أرسلت كتب النصر بفتح القدس الى جميع
بلاد الاسلام معظمها من انشاء عماد الدين الكاتب ، كما أخذ رسل
ملوك المسلمين تتوافد تباعا للتهنئة • وبتسلم المسلمين القدس ،
تحقق حلم نور الدين منذ أن أرسل حملاته على مصر ، ولكن على
أيدى صلاح الدين الذى سمى نفسه : « منقذ بيت الله المقدس من
أيدى الكافرين » •

وعلى النقيض لا يبدو أن الامام الناصر خليفة الاسلام بالعراق
قد سر بفتح القدس ربما حسدا لصلاح الدين ، مع أنه لم تكن له
سلطة حتى على بغداد • وقد ظهر حسده لصلاح الدين من
قبل حينما أرسل اليه يعاتبه فى تلقيب نفسه بالملك الناصر مع أنه
لقب أمير المؤمنين فى سنة ٥٨٢/١١٨٦ ، فأرسل صلاح الدين
يعتذر اليه بأن الخليفة المستضىء أباه قد أبقاه له ، وأنه لا يعدل
عن لقب لقبه به خليفة ، اذ كان تلقب به أيام الفاطميين كما ذكرنا •
ولكن المراجع المعاصرة تذكر أن سبب غضب الخليفة الناصر ، راجع
الى أن صلاح الدين أرسل كتاب النصر مع نجاب — أى حامل البريد
على النجب — وليس مع شخص له حيثية • فما كان من صلاح الدين
الا أن بعث الى الخليفة بخطاب عتاب ، يذكر فيه قضاءه على الخلافة
الشيعية ، وفتحه لبيت المقدس • فرد الخليفة على صلاح الدين
ردا شديدا ، وقال : « يفتخر علينا بالقدس ، وهل فتحها
الا بعساكر الديوان ، وتحت راياته » • وقد سعى عماد الدين
الكاتب بدبلوماسيته الى تهدئة الجو ، بأن كتب الى الخليفة على
لسان صلاح الدين يعتذر عما ورد فى الكتاب الأول ، الذى هو من
انشاء كتاب الديوان • كذلك يبدو الحقد المكبوت فى العراق فى

اصطدام حجاج العراق بحجاج الشام ومصر بعرفات ، حيث قتل
من هؤلاء جماعة من بينهم ابن المقدم ، الذى كان سلم دمشق ،
فضمه صلاح الدين الى امرائه ، وعينه أمير حجاج الشام ومصر من
قبله لسنة ٥٨٣/١١٨٨ ، بحجة أن شرف ضرب الطبول «كؤسات»
تكون لمندوب حجاج الخليفة من العراق قبل غيره • وقد تأكدت
الوحشة من جديد بين صلاح الدين والخليفة بسبب هذا الحادث ،
رغم استنكار الخليفة له استنكارا شديدا • ولكن لما عاد القتال
ضد الفرنجة عادت الأمور الى مجراها ، وأرسل صلاح الدين الى
الخليفة تاج ملك الفرنجة وهدايا وتحفا ، وكان يكثر من اظهار
الولاء ، فيصف نفسه : بالمملوك والخادم والمولى والعبد •

وبتسليم بيت المقدس أعاد صلاح الدين لمساجده طابعها
الاسلامى وجددها ، بعد أن غير الفرنجة فيها وحولوها الى كنائس ،
ولدينا نقوش من عهده تدل على تجديدها • فهو الذى أمر باظهار
الصخرة المقدسة ، التى كان الفرنجة قد فرشوا الرخام فوقها
لحفظها ، بسبب أنه كان يقطع منها قطع صغيرة للبركة أو لبيعها ،
فلما ظهرت قام بغسلها وهو يبكى • كذلك أمر بخلع الصليب
النحاس الكبير المحلى بماء الذهب ، الذى أقيم على قبتها ، ووضع
مكانه هلالا بين حماس المسلمين وفرحهم ، وأرسل الصليب الى
بغداد ليداس فيها بالنعال ، ويدفن تحت أسوارها • وقد أعاد
المسجد الأقصى الى حالته الأولى بعد ان كان الفرنجة حولوه الى
كنيسة ، وبنوا فيه نزلا لفرسانهم الداوية ومخازن ، فأمر بهدم
ما أضيف اليه وأزال التماثيل والصور ، ووضع فيه القناديل ،
وفرشه بالبسط ، وحمل اليه منبرا كان نور الدين أمر بصنعه
بحلب ، لينصبه فيه اذا ما فتح القدس على يديه • فاقيمت فى
المسجد الأقصى صلاة الجمعة يوم الجمعة التالى لدخول صلاح الدين
القدس ، فكان الخطيب يعدد مآثر البطل الفاتح ويدعو له ،

والمصلون يؤمنون على دعائه . وقد أشير على صلاح الدين بهدم كنيسة القيامة انتقاما لما فعله الفرنجة بمساجد المسلمين ، فلم يوافق لأن عمر بن الخطاب أبقاها لما تسلم القدس ، الا أنه أمر بغلقها وكسر أجراسها وازالة صلبانها ، ثم فتحها بعد مدة ، وقرر على من يرد اليها من الفرنجة مبلغا من المال ، ولكنه حول كنيسة غيرها الى مدرسة ، وأخرى الى رباط للصوفية . فكان تصرف صلاح الدين السمح نحو كنيسة القيامة المقدسة ، يخالف تصرف الفرنجة المشين نحو مسجدى الصخرة والأقصى .

وبعد فتح القدس ، بلغ من حماس صلاح الدين للجهاد أنه فكر فى طرد الفرنجة من الشام . وقد أصبح النصر حليفه فى هجومه عليهم ، بحيث أن أغلب قلاعهم فيه خضعت له ، مما لم يسمع بمثله من قبل . فنذكر من جملة انتصاراته الرائعة ، مثل : لاذقية وجبلة والكرك والشوبك وصفد وكوكب وانطرسوس ... ولم يبق بيد الفرنجة غير أنطاكية وطرابلس وصور فيقول صلاح الدين فى احدى رسائله الى أخيه باليمن : « ان بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما » .

ولكن فوت على صلاح الدين النصر التام سوء تصرف اختلف المؤرخون فى مصدره . فتارة ينسبونه الى صلاح الدين ــ ومنهم ابن الأثير ، الذى كان هواه مع الزنكيين ــ بتركه فرصة النصر تفوت بتريثه وقتا طويلا فى القدس ، وباسرافه فى منح الأمان لأهل مدن الفرنجة المستسلمة ، الذين كانوا يأوون الى المدن الباقية لهم على الساحل ، مما جعل هذه المدن تقاوم عسكر المسلمين . وتارة أخرى ينسبونه الى عسكره الغريب عن الشام ومصر من أهل البلاد الشرقية بخاصة من ديار الجزيرة ، الذين كانوا غالبا

ما يملون الجهاد ، ويسعون الى العودة الى أوطانهم ، مما أتاح للعدو أن يستمر فى القتال . على كل حال عاد الفرنجة الى تحدى المسلمين ، مع أن هؤلاء كانوا على وشك الرمى بهم الى البحر .

ولعل مظهر عودة الفرنجة الى المقاومة ، هو فشل صلاح الدين فى أخذ مدينة صور بلبنان ، المعروفة للأوربيين باسم (Tyr) ، وهى ميناء مشهور تمتد فى البحر كالكف . وكان الفرنجة قد فتحوها من الفاطميين أيام الآمر فى سنة ٥١٨/١١٢٤ ، وبنوا عليها سورا يحيط بها من البر . كما حصنوا مدخلها بسلسلة تشد بين برجين ، فضلا عن أن ميناءها كان يستطيع استقبال المراكب الكبار ، حتى ضرب بها المثل فى الحصانة .

وكانت صور من أملاك أمير طرابلس ــ القمص ــ الذى أخلاها من جنده لما هرب من حطين ، حيث لم يلبث أن توفى . فاستعد أهلها لتسليمها لصلاح الدين ، لولا أن جاءهم فارس شجاع ، من أسرة نبيلة معروفة بمحاربتها للمسلمين اسمه كونراد دى مونتفرات «Conrad de Montferrat» . ولم يكن يعلم بهزيمة الفرنجة بالشام ، وكاد يؤخذ فى عكة من حاميتها المسلمة ، لولا فراره الى صور ، التى لم يكن صلاح الدين قد حاصرها بعد ، لانشغاله بغيرها من الحصون . فقرر أهل صور تولية كونراد عليهم ليحفظها ، فاشترط عليهم أن يملكوه مدينتهم ، واتخذ لقب مركيز «Marquis» ، فاشتهر للعرب بالمركيس أو المركيش ، وان سماه ابن الأثير بالشيطان لكفاءته ومكره فبذل كونراد همة كبيرة فى تقوية تحصيناتها ، فحفر حولها خندقا عميقا ، وعمل لها أسوارا جديدة ، بحيث أصبحت معقلا منيعا للفرنجة ليس من السهل اقتحامه .

فلما جاءها صلاح الدين بعد حطين ، استعظم تحصينها ، فتركها لرغبته القوية فى فتح بيت المقدس . وقبل أن يغادرها عرض على كونراد تسليمها لقاء اطلاق سراح أبيه غليوم دى مونتفرات Cuil!aume de Montperrat الذى كان من أسراه فى حطين . ولكن كونراد أجاب بأنه ليس مستعدا للتضحية بصور من أجل والده المسن ، ومع ذلك فان صلاح الدين أطلق سراح أبيه وأرسله اليه . وقد كان من المنتظر أن يعود صلاح الدين سريعا لفتح صور ، بعد أن فتح بيت المقدس ، حيث كان قواده فى مدن الساحل المجاورة لصور يستحثونه ، ويكتبون اليه : « الفرصة تدرك بالحث ، وتفوت باللبث » . ولكنه تريث وقتا لشغله بنصره العظيم ببيت المقدس ، فلما عاد لحصار صور وجدها صعبة المنال بمن جاءها من الفرنجة الكثيرين الهاربين من القلاع ، وبخاصة من فرنجة بيت المقدس الذين كان منحهم الأمان ، كما جاءتها مراكب بيزية وجنوية والمانية وفرنسية لشد أزر حاميتها ، بحيث كانت هذه المراكب تخرج لتقاتل المسلمين على الساحل . فأقام حول أسوار صور عددا كبيرا من المنجنيقات الطوال والصغار التى ترمى بالأحجار والنار ، كما استخدم الأبراج والدبابات بقصد نسف الأسوار . كذلك طلب مراكب الاسطول المصرى الموجودة بعكة ، فجاءته منها عشر شوانى كبار ، فحصر بها صور من البحر أيضا ، بحيث منعت مراكبها من الخروج ، واجبرتها على البقاء فى الميناء . ولكن مراكب الفرنجة دهمت فجأة مراكب المصريين فى الليل ، وادخلت خمسة منها الى صور ليقتل رجالها امام أعين جيش صلاح الدين المحاصر ، وان قيل انها دخلت بالخديعة لتتسلم البلد ، أما الخمس الباقية فانها لما حاولت الفرار لحقتها مراكب الفرنجة وأخذتها . وقد نسب فشل المراكب المصرية الى سوء تدريب رجالها ، الذين كانوا كلهم من بحرية مصر كما يذكر

النص . وقد شجع ذلك فرنجة صور على الخروج لقتال جيش المسلمين ، الا أنهم ردوا وهزموا . ولكن البرد اشتد ، وضجرت العسكر من الحصار الطويل بعد تعودهم الفتح السريع ، فاضطر صلاح الدين تحت الحاحهم الى رفع الحصار في شوال ٥٨٣/١١٨٧ . ويلوم ابن الأثير صلاح الدين ، فيقول : لم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين . فانه جهز اليها جنود الفرنج ، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكة وعسقلان والقدس .

وفوق ذلك ، كان صلاح الدين قد ذهب لمحاصرة أمير انطاكية — البيمند — الذى اصبح من أعظم الفرنجة شأنا : بتسليم أهل طرابلس مدينتهم اليه بعد موت اميرهم — القمص الذى لم يخلف ولدا ، وبقضاء صلاح الدين على مملكة بيت المقدس ، التى كان يعتبر تابعا لها . وقد كان فى نية صلاح الدين القضاء عليها نهائيا ليعوض فشله أمام صور ، ولا سيما وأن أمره انتهى بعد أن استولى على أغلب حصونه فى نواحى انطاكية وطرابلس ولكن امير انطاكية أسرع بطلب الهدنة ، فحث صلاح الدين عسكره الغريب ، الذين سئموا القتال ورغبوا فى الراحة على عقد الصلح . فعقده صلاح الدين معه لمدة ثمانية أشهر فى عام ٥٨٤/١١٨٨ ، على غير رغبة منه ؛ خوفا من تقويته بهذه الهدنة ، واشترط عليه أن يطلق من عنده أسرى المسلمين .

ولقد أحيت مقاومة صور آمال الفرنجة فى أوربا فى التشبث بالساحل الشامى ، ولا سيما أن البطريرك الذى كان ببيت المقدس ، وتركه صلاح الدين يرحل عنها بالأمان ، دخل بلاد الفرنجة بأوروبا « أفرنجة » ، يطوفها جميعا ومعه صورة رجل عربى يضرب المسيح ، ليحثهم على الأخذ بثأر بيت المقدس من

المسلمين . فعمل البابا جريجورى الثامن Cregoire على الدعوة لحرب المسلمين ، وهو خلف البابا اربان الثالث Urbain III ، الذى ربما توفى من أثر سقوط بيت المقدس فى يد المسلمين . ولكن جريجورى لم يلبث أن توفى هو الآخر ، فجاء بعده كليمنت الثالث Clement II ، الذى أمر أساقفته فى كل مكان بالتبشير بحرب صليبية ، وهى ما عرفت بالحملة الصليبية الثالثة . فاشتركت أوربا كلها فى هذه الغزوة بجميع بلادها وامكاناتها ، حتى بنسائها اللاتى جندن فى زى الرجال . فجاؤوا لقتال المسلمين على الصعب والذلول برا وبحرا ، مندفعين بالحماس الدينى لعقيدتهم .

وكان أول الوافدين من كبار الفرنجة الملك السابق لمملكة بيت المقدس جى – يسميه أيضا العرب العتيق – وهو الذى كان صلاح الدين قد أطلقه من الأسر ، لقاء حضه فرنجة عسقلان على تسليمه مدينتهم الهامة ، وذلك على ألا يعود الى حربه . فنكث جى بوعده ، وأخذ من القسس تحللا من قسمه ، وعاد الى الاراضى المقدسة ، لعله بذلك يكفر عن هزيمته بحطين ، التى ترتب عليها فقدان مملكة بيت المقدس . فلما جاء الى نواحى طرابلس ، التف حوله جماعة من الفرنجة من مختلف الأجناس ، وبخاصة من النورمان ، الذين جاؤوا نجدة لحامية طرابلس ، لحفظها من المسلمين . ولكن وقع نزاع بينه وبين كونراد دى مونتفرات على عرش مملكة بيت المقدس ، وبخاصة أن فرنجة الشام كانوا قد عزلوه بسبب هزائمه على يد المسلمين . فضلا عن أن كونراد كان هو الآخر من البيت المالك : فأخوه الكونت غليوم «Guillaume» – المشهور بالسيف السليط – كان زوجا لسيبلا قبل جى ، وأبو بودوان الخامس ، مما جعل من كونراد منافسا خطيرا لجى على عرش مملكة بيت المقدس . فرفض كونراد ان يدخله

صور ، الا أنهما اصطلحا على قتال صلاح الدين ، وترك مسألة العرش يحكم فيها فيما بعد .

وقد بدأوا بعكة أو مدينة عكة (وتكتب أيضا عكا أو عكاء) : أو ما يعرف للأوربيين «Akko» ، وهى بلد قديم ، من أحصن بلاد ساحل الشام ، مشيدة على أرض مرتفعة ، وزاد من حصانتها أن الأراضى المحيطة بها مملوءة بالجبال والوديان . وهذه المدينة فتحها المسلمون فى سنة ٦٣٦/١٥ ، واتخذها معاوية قنطرة للاستيلاء على جزيرة قبرص ، ثم أقام فيها هشام دارا لصناعة السفن ، وان نقلها بعد ذلك الى صور المجاورة . فلما جاء أحمد بن طولون واليا على مصر والشام من قبل العباسيين ، عمل على احاطتها بسور ضخم ، وشد سلسلة فى مينائها لمنع المراكب كما فى صور . كذلك بقيت عكة مدينة هامة أيام الفاطميين ، وأقيمت فيها تحصينات فى غاية االاحكام تطل على البحر . فكانت لحصانتها هدفا لمحاولات الفرنجة الاستيلاء عليها منذ مجيئهم الشام ، فقتل أمامها جودفروا وأول رئيس لدولة بيت المقدس ، وان استولى عليها بودوان بعده ، بعد حصارها برا وبحرا فى سنة ١١٠٤/٤٩٧ ، وذلك لاضطراب أحوال الفاطميين فى أيام الآمر . فبقيت فى أيدى الفرنجة حتى فتحها صلاح الدين فى جمادى الأول سنة ١١٨٧/٥٨٣ ، وان سمح لأهلها بالهجرة منها آمنين الى قلاع أخرى لهم على الساحل ، وبخاصة الى صور . وقد كان استيلاء صلاح الدين عليها حدثا هاما ، لأنها كانت أول ما فتح من مدن الساحل ، كما أنه غنم فيها بضائع كثيرة ، اذ كانت مقصد تجار الفرنجة واليونان وغيرهم من أقاصى البلاد وأدناها ، حتى شبهت فى عظمتها التجارية بالقسطنطينية .

فقام صلاح الدين بتحصينها ، لأن أسوارها هدمت . فأرسل فى استدعاء بهاء الدين قراقوش ليتولى تحصينها ، وهو الذى حصن

القاهرة وبنى قلعتهـا ، فجاءها ومعه عمال ومهندسون من أهل مصر ، وبعض أسرى الفرنجة ، لتسخيرهم فى مشروعات تحصينها ، كما أحضر أدوات وآلات كثيرة • فكان تحصين قراقوش لأسوار عكة وبروجها ، عملا معماريا فنيا ضخما ، تمكن به من مقاومة الغزاة الأوربيين زهاء ثلاث سنوات ، كذلك استعمل قراقوش فيها الحمام الزاجل ، وبنى له أبراج الخشب ، مما هيأ لعكة وسـائل البريد السريعة فى عصره • يضـاف الى ذلك ، أن صـلاح الدين شحنها بمقاتلين كثيرين ، وجلب اليهـا بعض مراكب الأسطول المصرية ، لتربط فى مينائها •

فخرج الفرنجة الى عكة فى أعداد كثيرة بقيادة جى فى رجب سنة ٥٨٥/ أغسطس ١١٨٩ ، وسارت مراكبهم معهم بحذاء البحر • ويبدو أن صلاح الدين لم يؤخذ على غرة بمقصدهم عكة ، فقد كان ترك أمام حامية صور « اليزك » ، وهى كلمة فارسية تعنى الطلائع ، التى نبهت حامية عكة ، لتكون على أتم استعداد • وكان رأى صلاح الدين أن يقاتل الفرنجة أثناء تقدمهم على عكة ، لأنهم اذا وصلوا اليها لصقوا بأرضها ، ولكن قواده لم يرضوا قتالهم الا متجمعين أمام عكة ، بحجة أن الطريق التى سلكهـا الفرنجة وعرة لا يسهل قتالهم فيها ، وللاجهاز عليهم دفعة واحده • ومع ذلك رتب صلاح الدين للفرنجة الكمين ، وهى عصابات من الأعراب لتقاتلهم أثنـاء سيرهم • فكانت نتيجة مخالفة رأى صلاح الدين ، أن وصل الفرنجة الى عكة قبل عسكر المسلمين ، ولا سيما أنهم كانوا ينزلون حولها حتى من البحر ، فضربوا عليها حصارا شديدا من البحر الى البحر ، حتى لم يبق لعسكر صلاح الدين اتصال بها •

وقد كتب صلاح الدين يستدعى العسكر الاسلامى ، الذى كان متفرقا أمام انطاكية وصور وطرابلس ، وعلى سواحل مصر فى

الاسكندرية ودمياط • فأسرع العسكر الى المجىء بأعداد كبيرة من الشام والجزيرة ، وان كان مجيئهم بطيئا ، عن طريق البر لا البحر كالفرنجة فكانت الحرب بينهم وبين الفرنجة سجالا ، كثيرة الوقوع بين صغيرة وكبيرة ، ومنها اليوم المشهور ، ومنها ما هو دون ذلك • ولعل أهمها وقعة حمل فيها المسلمون على الفرنجة ولصقوا بأسوار عكة ، فأدخلوا فيها من أرادوا من الرجال والأزواد والأموال • كذلك قرر الفرنجة من جانبهم مهاجمة المسلمين قبل أن يتم وصول بقية أمدادهم من مصر ، فهزموهم فى أول الأمر هزيمة شديدة ، وأجبروهم على الفرار فى كل اتجاه ، ووصلوا الى خيمة صلاح الدين نفسها وقتلوا من حولها • ولكن بفضل حماس صلاح الدين ، الذى كان يصيح فى عسكره قائلا : « ياللاسلام » ، عادوا الى قتال الفرنجة ، وهزموهم بمشاركة حامية عكة ، بحيث قتلوا منهم عشرة آلاف ، فعرفت هذه المعركة : بالوقعة الكبرى • وعلى الرغـم من أن صلاح الدين كان من رأيه الاجهاز على قوة الفرنجة ، قبل أن ينفتح البحر على حد قوله • فان قواده من الكرد والترك اضطروه للرحيل بعيدا عن عكة ، ليبعدوا عن جو المعركة ، الذى تلوث برائحة موتى الفرنجة الكثيرين ، وظنا منهم أنهم قضوا على الفرنجة نهائيا •

ولكن رحيل عسكر صلاح الدين هيأ الفرصة أمام الفرنجة ، ليعودوا الى حصار عكة من جديد ، بعد أن جاءتهم أمداد كثيرة ، فحاصروها من كل جانب ، وشرعوا فى حفر خندق وعمل سور من التراب ليقيهم سهام المسلمين • فأسرع صلاح الدين بالمجىء مع ما جمعه من رجال كثيرين من أهل الشام ، وان لم يستقر باله الا لما وصل العسكر المصرى الكثير من السمر وسودان مصر ، أو كما يقول ابن الأثير : المصريين • فكان هم الفرنجة على الخصوص محاربة المصريين وكسر شـوكتهم ، بحيث أن المصريين وحدهم قتلوا منهم

فى احدى الوقائع عشرة آلاف قتيل · وعلى الرغم من أن الفرنجة جاءهم عدد كبير بعد هذه الوقعة مع المصريين ، ومع شخصية غامضة الجنسية يسميها العرب الكندهرى ، وربما يقصد بها كونت كبير «Comte» ، وهو هنرى دى شامبين «Henri de Champaigne» فان عسكر صلاح الدين صدوهم فى كل هجوم ·

وقد كان الفرنجة يتفننون فى استخدام أدوات الحرب لقهر المسلمين ، الذين كانوا يبذلون جهدهم لوقف خطرها ، فالاختراعات تساير الحروب دائما · فكان لديهم الآلات الحربية العجيبة والصنائع الغريبة ، منها : أنهم صنعوا أبراجا كبيرة من الأخشاب الطوال والحديد حول أسوار عكة ، حتى علت على منازل المدينة وأسوارها ، وكسوها بجلد البقر وبللوها بالخل والطين لمنع الحريق ، وكانوا قد استمروا فى صنعها تسعة أشهر ، فكان مقاتلوا الفرنجة يطلقون منها على حامية عكة النار والأحجار والسهام بشدة لم تعرف من قبل · ولكن تمكن أحد متطوعى دمشق من حرقها ، بعد أن عجز عسكر عكة عن ذلك ، اذ كان هذا الدمشقى يهوى تركيب عقاقير النفط ، فرمى بالمنجنيق قدور النفط باردة ، لتبلل الأبراج من كل ناحية ، ثم رمى بالنار فاشتعلت فيها ، فلما أحرقت أرسلت البشائر الى جميع بلاد المسلمين · كذلك أقام الفرنجة دبابة هائلة يزعج مرآها ، مصنوعة من خشب ورصاص وحديد ونحاس ، مقامة على عجل تسير من داخلها ، لها رأس بقرنين يقال له الكبش ، وهى لا تنقر الأسوار فقط ، وانما تلقى بالنار أيضا · فتمكن المسلمون من تدميرها بالقاء النار داخلها لما فتح بابها ، فقتل من فيها · وقد كان معظم الفرنجة يرمون بالزنبرك ، وهو آلة فى طول الذراع ، طلقتها للسهام سريعة ، وتخترق رجلين جالسين أحدهما خلف الآخر ·

أما عن عسكر المسلمين ، فانهم برعوا فى استخدام آلات الحرب : أخصها آلة حديدية تسمى مثلثة لها أحجام مختلفة ، لنشرها على الأرض كالألغام فى وقتنا ، لتعوق تقدم العدو ، بخاصة فرسانه · كذلك أكثروا من استعمال النفط أو النفوط ، اعرفوا منه أنواعا مختلفة ، مثل : النفط الأسود أو الزفت ، الذى كان يوجد على ساحل بحر القلزم « الأحمر » يسيل من أعلى جبل ويجمع فى خزائن ، وقد استخدم صلاح الدين هذا النوع بكثرة فى حروبه . والنفط الأبيض أو الطيار وكان يأتى به من العراق ، فكانوا يضعونه فى قارورات أو قدور ، ويلقونه بالقوس والسهم والمنجنيق وقد كان عسكر صلاح الدين يستعمل قوسا يشدها رجل واحد ، فترسل عدة سهام مرة واحدة ، بشدة واحدة ، كما أن رمى المنجنيقات أصبح من الدقة بما لم يكن يعرف ·

وفى الوقت ذاته ، كانت أساطيل مصر أو ما يعرف بأساطيل الاسكندرية ، تقوم بنصيب فعال فى قتال الفرنجة ، الذين كانت مراكبهم متواصلة وكثيرة على الساحل الشامى · فحينما حاصر الفرنجة عكة من البحر والبر ، استدعى صلاح الدين خمسين شينيا من المراكب الحربية الكبيرة ، وعلى ظهرها عشرة آلاف بحار مصرى ، بقيادة لؤلؤ الشيخ ، أحد قواد صلاح الدين ، الذى عرف بشجاعته من قبل فى أخذ مراكب الفرنجة ، لما أطلقت فى البحر الأحمر · كذلك أمر صلاح الدين بتعمير أسطول ثان من مصر ، ليساعد الأسطول الأول ويريحه · فكان وجود هذه المراكب الحربية فى عكة داعيا الى تقوية حاميتها ضد المحاصرين ، بالدفاع عنها من ناحية البحر ، أو بالاشتراك مع حاميتها فى قتال المحاصرين فى البر ، اذ كان بحارتها مدربين على القتال البحرى والبرى ، ويسمونهم : بحرى وحربى · وقد كان الأسطول الاسلامى كثيرا ما يخرج من

عكـة ، ليغير على مراكب العدو فى عرض البحر ويقطع خطوط
تموينه ، وكتب فى ذلك صفحات فخار رائعة • ففى مرة استولى
على خمسة مراكب انجليزية وطريدة ، وهذه الأخيرة سفينة صغيرة
تستخدم فى حمل الخيل • وأهم من ذلك قيامه بمد حامية عكة
بالرجال والمؤن والأزواد مشتملة على البطس ، وهى من السفن الحربية
الكبار مفردها بطسة ، تشتمل على عدة طبقات ، وعلى قلوع كثيرة ،
تقدر بأكثر من أربعين قلعا • وفى مرة تأخرت بطس الأزواد من
الاسكندرية ، فعمل صلاح الدين بطسة عظيمة فى بيروت وملأها
بالقمح وأصناف الطعام والأدام والأغنام ، ولكى يوصلها بحارتها
سالمة ، وكانوا من المسلمين والنصارى من أهل بيروت ، لبسوا
مسوح الرهبـان ورفعوا عليها الصلبان ، فدخلوا عكة سالمين •
والعجب العاجب أن لما اشتد حصار الفرنجة على عكة من البحر ،
كان صلاح الدين يندب العوام لحمل نفقات الأجناد على أوساطهم ،
فنصب الصليبيون لهم الشباك فى الماء لاصطيادهم ، فوقع كثير
منهم بين أيديهم •

ولعل أهم عمل قام به الأسطول المصرى ، اقامة البدل لحامية
عكة ، وذلك فى أواخر سنة ٥٨٦/١١٩٠ ، وأوائل سنة ٥٨٧/
١١٩١ • ففى فصل الشتاء ، سحب الفرنج مراكبهم المحاصرة أمام
عكة لهياج البحر ، فأمر صلاح الدين أخاه العادل بمباشرة تغيير
الحامية • فجمع العادل عددا كبيرا من المراكب ، نقل عليها زهاء
عشرين ألفا من رجـال الجيش والبحر • ومع أن صلاح الدين لم
يجبر أحدا على دخول عكة بدل الراحلين عنها ، الا أنه يبدو أن
أغلب من دخلها من الجند المصريين ، بدليل وجود كتاب القبط ،
الذين كانوا يدفعون لهم النفقة • وعلى النقيض تردد معظم قواد
صلاح الدين من الترك والكرد ، فلم يدخل عكة منهم غير عدد قليل،

لا يبلغ عشرين ، على رأسهم سيف الدين المشطوب كبير الأكراد ،
وبهاء الدين قراقوش الذى عين حاكما عليها •

ولكن أسطول الاسكندرية لم يكن يستطيع أن يوقف أمداد
الفرنجة المتواصلة عبر البحر فى أساطيلهم العديدة ، فطلب صلاح
الدين من ملك دولة الموحدين بالمغرب ، أن يشترك بأسطوله فى
قطع خطوط أمداد العدو • ولدينا نص رسالتين موجهتين من صلاح
الدين الى ملك المغرب أبى يعقوب المنصور بن عبد المؤمن الموحدى ،
يطلب فيهما مساعدته ، أورد القلقشندى احداهما من غير تاريخ ،
وأورد أبو شامة الأخرى • ولكن سوء العلاقة بين صلاح الدين وابن
عبد المؤمن ، لم يجعل أسطول الموحدين يشترك بمجهود ما ، لأن
صلاح الدين لما كان تولى وزارة العاضد ، أرسل مملوكا لابن أخيه
اسمه قراقوش التقوى على رأس حملة قوية من الترك « الغز » ،
فتح بهم برقة وطرابلس الغرب ، ثم تونس التى أقام الخطبة فيها
لصلاح الدين سنة ٥٨٣/١١٨٨ • ولا نعرف سبب ارسال صلاح
الدين لهذه الحملة ، ربما لحاجته للمال كما يذكر المقريزى ، ولا سيما
أن برقة وطرابلس لم يكن فيهما غير عربان من غير سلاح ، أو لرغبته
شغل الترك « الغز » فى جيشه لموقفهم العدائى منه ، بسبب غضب
نور الدين عليه ، وربما على الخصـوص لمساعدة بقايا المرابطين
بتونس ، الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين ، ضـد دولة
الموحدين ، التى سيطرت على كل المغرب حتى تونس ، واتخذ ملوكها
لقب الخلافة لأنفسهم ، قاطعين صلتهم بالخلافة العباسية • ولدينا
اشارات المؤرخين عن طموح خلافة الموحدين الى الاستيلاء على الشرق
الاسلامى وبخاصة مصر ، وكانوا يعتبرون كل الملوك غير خلفائهم
كفارا • فقاتلت حملة صلاح الدين خليفة الموحدين أبى يعقوب
المنصور وهزمته ، وان رجع وهزمها ، بحيث فر قراقوش التقوى
بعدها من تونس • وربما أيضا أن أسطول الموحدين لم يشترك

بمجهود ما متعاونا مع صلاح الدين ، بسبب انشغاله بحرب فرنجة الأندلس ·

وقد استفحل الأمر على المسلمين بمجيء ملوك أوربا ، ولا سيما أن البابا كان أرسل الى فرنجة الشام يعدهم بارسال امدادات كثيرة ، ويدعوهم الى المثابرة على حصارهم عكة ، ويعلمهم أنه أرسل الى جميع فرنجة أوربا يأمرهم بالمسير اليهم برا وبحرا · وفعلا نجح البابا فى اصلاح ذات البين بين ملوك أوربا ، وتوجيههم الى حرب المسلمين · فمع أن كلا من ملك انجلترا هنرى الثانى «Henri II» وملك فرنسا فيليب أغسطس «Philippe Auguste» . كانا فى حروب مستمرة بسبب ملكية هنرى لنورماندى «Normandie» فى شمال فرنسا ، فانهما اتفقا على دفن الخلاف بينهما ، ومحاربة المسلمين ، ولكن عاد النزاع ، بسبب أن هنرى خلع عن ولاية عهده لصالح ابن آخر ، ابنه الأكبر ريتشارد «Richard» ، الذى عرف فيما بعد بقلب الأسد «Lion Heart» ، لشجاعته وقسوة قلبه ، فحارب ريتشارد أباه بمساعدة ملك فرنسا ، وكان قد خطب أخته أليكس Alix فلما توفى هنرى فى سنة ١١٨٩ م ، تولى ريتشارد العرش ، واتفق مع فيليب على استخلاص الأراضى المقدسة · كذلك نجح البابا فى انهاء النزاع بين فردريك بربروسا «Frederic Barbrosse» ، وبقية أمراء اللومبارديين فى ايطاليا ، بقصد محاربة المسلمين ·

وقد كان الألمان أول من غادروا بلادهم الى الشرق ، فعبروا وسط أوربا الى القسطنطينية فى أعداد هائلة بلغت مليون مقاتل « ألف ألف » ، حيث يقول ابن الأثير عنهم : « انهم نوع من الفرنجة شديدى البأس » · وكان لملكهم فردريك خبرة سابقة بحرب

المسلمين ، وذلك حينما اشترك مع عمه الأمبراطور كونراد الثالث فى الحملة الصليبية الثانية ، فاستعد لهذه الحملة استعدادا كبيرا ، واستكمل نواحى النقص فى الحملة السابقة ، فجهزها بكل ما تحتاج اليه ، مما جعلها شديدة الخطر على مسلمى الشرق · وقد أورد المؤرخ الصليبى ماتيو باريس «Mathieu Paris» نص الكتب المتبادلة بين صلاح الدين وفردريك ، اذ أراد هذا الأخير على طريقة الفرسان ألا يهاجمه قبل أن يدعوه الى تسليم الأراضى المقدسة · ولكن صلاح الدين رد عليه برسالة مؤداها أنه سيقاتله بشدة ، الا اذا جنح الى السلم فيسهل لحجاجه زيارة بيت المقدس ، ويسمح لمندوب له البقاء فيه ·

فلما وصل فردريك بجيشه أمام القسطنطينية قوبل من ملك بيزنطة اسحق الثانى «Isaac II» – ويسميه العرب ايساكيوس – بنفس العداء الذى قوبل به ملوك الفرنجة العابرين بلاده من قبل · فقد كان اسحق يخاف من الألمان لكثرتهم ، علاوة على أنهم كانوا قد ساعدوا النورمان – وهم فرنجة مثلهم – فى قتال اليونان « الروم » ، ولأن فردريك كان يحمل لقب امبراطور الدولة الرومانية ، مع أن بيزنطة تعتبر نفسها وارثة الرومان · وفوق ذلك ، كان اسحق قد تقرب من صلاح الدين وحالفه ، منذ أن حارب صلاح الدين الترك السلاجقة فى آسيا الصغرى كما ذكرنا ، فلم يشترك مع فرنجة الشام فى حطين ، وأرسل يهنئه بفتح بيت المقدس ، وأعاد فتح جامع القسطنطينية الذى كان قد أنشىء أيام العباسيين ، حيث أرسل اليه صلاح الدين المنبر والخطيب والمؤذنين والقراء · فلعل اسحق كان يطمع فى الاشراف على كنيسة القيامة ، والأماكن المسيحية فى الأراضى المقدسة · وقد وعد اسحق صلاح الدين بألا يمكن الألمان من عبور بلاده ، الا أن هؤلاء بدأوا حروبهم الصليبية ضده ، وأخذوا رهائنه ، لما أراد منعهم ، فأرسل الى صلاح

الدين يذكره بصداقته ، ويعتذر عن عبور الألمان ، ولا يرجو لهم النجاح ٠

كذلك هيأ اضطراب أحوال الترك بآسيا الصغرى تسهيل عبور الألمان فيها فقد ضعفت دولتهم بتقسيم قلج أرسلان (الثانى) أملاكه بين أبنائه الكثيرين ، بحيث ان ملك الألمان دخل قونية — عاصمتهم — باتفاقه مع ابن قلج الأكبر المسمى قطب ملكشاه ، وأجبر قلج على تقديم الخيل والمؤن والرهائن ٠ وقد كان تراخى قلج فى جهاد الألمان على نقيض ما ورد فى مكاتباته ومكاتبات أبنائه الى صلاح الدين بالتعاضد معه ، بحيث سمى عماد الدين الكاتب مصالحة الترك للألمان وتركهم للجهاد : « بأنه حادث كارث ٠٠٠ فاجع لأهل الحمية فى الدين ٠ والواقع أن ترك آسيا الصغرى ، عرفوا بتراخيهم عن الجهاد ، مع انهم كانوا يملكون مناطق شاسعة مجاورة من الغرب لليونان ومن الشرق لفرنجة الشام ، حتى أن نور الدين عاتب قلج على ذلك ٠ وقد أرسل قلج يعتذر لصلاح الدين بعجزه عن قتال الألمان ، لأن أولاده حجروا عليه ، وتفرقوا عنه ٠ وعلى النقيض سمعنا أن قبائل تركمانية أخرى ، حاربوا الألمان منذ دخولهم آسيا الصغرى ٠

فلما وصل الألمان الى بلاد الأرمن عبروها هى الأخرى بأمان ، وهم عناصر مسيحية شرقية تسكن فى مناطق جبال واغوار فى آسيا الصغرى من جهة ساحل البحر الأبيض الى الفرات ، التى عرفت للعرب باسم بلاد سيس أو سيسية ، نسبة الى قصبة بلادهم سيس ، كما عرف لهم زعيم الأرمن باسم ابن ليون أو ابن لاوون (ليون الثانى) ، أو حتى كلب الروم لوجود بلاده على حدود آسيا الصغرى ٠ وكان الأرمن قد فقدوا استقلالهم على يد العرب الأوائل ، ثم استقلوا لما ضعفت الخلافة العباسية ، ولكن السلاجقة استولوا

على أجزاء كثيرة من بلادهم واستقروا فيها ٠ فلما جاء الصليبيون تمكن الأرمن من تكوين مملكة مستقلة من مجموع قلاع عديدة لهم فى جبال طوروس ، عرفت بأرمينية الصغرى ، كانت تشارك الصليبيين فى الاغارة على بلاد المسلمين فى العراق وآسيا الصغرى ، ولا سيما أن عقيدتهم الدينية كانت مثل عقيدة الفرنجة تخالف عقيدة اليونان ٠ فكان ملوك الفرنجة بالشام يمنحون أمراء الأرمن الألقاب ، مما أزعج ملك بيزنطة وجعله يتصل بصلاح الدين ، حيث كان يطالب بملكية بلاد الأرمن ٠ وقد حاربهم صلاح الدين لما سيطر فى الشام ونواحى الجزيرة ، حينما استجار به تركمان آسيا الصغرى ، وأجبرهم على السكون ٠ فلما وصل الألمان الى بلادهم عاونوهم ، وأرسل ملكهم يهدد صلاح الدين ، وبخاصة أن فردريك كان قد وعد لاوون (ليون) بلقب ملك ٠ وعلى النقيض وجدنا بطريرك الأرمن جريجوروس يرسل كتابا الى صلاح الدين يخبره بوصول الألمان ، ربما بالاتفاق مع ليون ، الذى كان ينظر الى المستقبل ٠

ولكن فى أثناء سير الألمان واقترابهم من حدود الشام ، انتشر بينهم المرض والطواعين ، وفتكت بهم فتكا ذريعا ، بحيث أنهم ذابوا ذوبان الثلوج ٠ وقد أراد ملكهم السباحة فى النهر — وكان شيخا مسنا — فهلك من برودة الماء ، فزاد هذا فى مصائبهم ٠ وحينما وصلت قلة منهم بقيادة ابنه المسمى فردريك سواب «Fréderic Souabe» الى أنطاكية أول الشام ، نقلوا على أميرها الفرنجى ، فطلب منهم مهاجمة حلب ، التى تجمع فيها عسكر صلاح الدين ٠ ولكنهم جبنوا عن مهاجمتها ، وساروا الى طرابلس التى بيد الفرنجة ، حيث وضعوا فى كنيستها رماد ملكهم فردريك بربروسا ، ومنها ركبوا بحرا الى عكة ، فوصلوها فى سنة ٥٨٦/١١٩٠ ٠ ولم يلبث ابن ملك الألمان أن توفى ، بعد أن حارب المسلمين ، فلم ينل منهم

نصرا ، كما أن بقية الألمان الأحياء لما أرادوا العودة الى أوطانهم ، غرقت بهم المراكب • فكأن لعنة الأقدار صاحبت الجيش الألمانى ، الذى لو وصل سالما ، لقيل ان الشام ومصر كانتا للمسلمين ، على حد قول ابن الأثير •

وما أن خلص المسلمون من الألمان ، حتى دهمهم خطر فرنجة غرب أوربا • فقد جاء الشام ملك فرنسا فيليب أغسطس ، ويسميه العرب فيليب ملك أفرنسيس ، الذى سار الى جنوى ، ومنها ركب البحر الى صقلية ، حيث تقابل فيها مع ملك الانجليز • وقد حدث سوء تفاهم بينهما : فقطع ملك الانجليز خطبته من أخت فيليب المسماة أليكس «Alix» ، وربما أيضا لتدخل أمه التى لم تكن راضية عن زواجه بها • فابحر فيليب بمفرده الى الساحل السورى ، فوصله فى أسطول صغير لا يتعدى ست مراكب حربية ، وكأنه فى نزهة للصيد ، حاملا معه بازا •

أما ملك الانجليز ريتشارد ، ويسميه العرب ليجرت ملك الأنكتير أو الأنكتار ، فقبل أن يرحل الى الشرق ، ترك بلاده فى يد أخيه جان «Jean» ، والملكة الوالدة اليانور «Eléonore» ، وأبحر من سواحل جنوب فرنسا فى أسطول كبير الى صقلية ، حيث تقابل فيها مع فيليب ، وحدث بينهما سوء تفاهم ، فسبقه فيليب الى الساحل السورى كما ذكرنا • ولكن ريتشارد اضطر الى ان يحارب ملك صقلية ، الذى يبدو أن ملك فرنسا حرضه عليه ، وبسبب أنه أخذ أخته جان «Johane» أرملة ملكها غليوم «Guillaume» ، وكان النورمان حجزوها • وبعدها حملت الرياح أسطوله الى جزيرة قبرص ، التى كان يحكمها يونانى اسمه اسحق Isaac ، استقل بها عن بيزنطة ، وهزم جيشا من قبل ملكها اسحق الثانى بمساعدة نورمان صقلية ، وأعلن نفسه ملكا عليها ،

وربما أيضا كان أهل هذه الجزيرة من اليونان يريدون أن ينعموا بحياة هادئة بعيدة عن الصليبيين والبيزنطيين • فلما جاءها ملك الانجليز ، استقبله اسحق اليونانى بنفس العداء الذى كان يستقبل به ملوك أوربا من ملك اليونان البيزنطى ، اذ كان اليونان وقتئذ حلفاء المسلمين ضد الأوروبيين • وقد طلب ريتشارد نجدة من فرنجة الساحل فى حربه ضد القبارصة ، فأرسل اليه الملك جى أخاه جفرى ، وأخيرا طلب اسحق الصلح ، ولكن ريتشارد غدر به ، واستولى على الجزيرة • ولا شك ان احتلال الانجليز لقبرص ، التى تطل على ثلاث قارات ، يدل على ادراكهم المبكر لأهمية موقعها ، بحيث أصبحت قنطرة لكثير من الحملات فى الشرق • وبعد ذلك غادرها ملك الأنجليز الى الساحل السورى فى أسطول كبير ، قطعه الرئيسية وحدها خمس وعشرون شينيا ، كل منها أشبه بقلعة •

ازاء تهديد الفرنجة الشديد ندب صلاح الدين رسله الى ملوك المسلمين يحثهم على الجهاد عن الأراضى المقدسة ، وكان ذلك على الخصوص منذ تحرك ملك الألمان بجيشه الكبير نحو الشرق • وقد عرض صلاح الدين على الخليفة الامام الناصر ، الحضور بشخصه لتحميس المسلمين ، على أن يتنازل له عن جميع بلاده ، فاظهر صلاح الدين بذلك انكارا للذات ، واخلاصا فى الجهاد • ولكن أمراء الجزيرة الزنكيين رفضوا أن يوجد الخليفة بينهم ، ربما للعداء السابق بينهم وبين الخليفة ، كما أن الخليفة نفسه لم يكن متحمسا للانتقال من قصوره ، ليعيش فى ميدان القتال • فلم يرد الخليفة على دعوة صلاح الدين ، الا بأن أرسل اليه عدة أحمال من النفط ، وتوقيع بمال له عند بعض التجار ، مما جعل صلاح الدين يستاء من تصرف خليفة المسلمين • كذلك لم يستطع سلطان العجم بايران • وأمراء الترك بآسيا الصغرى أن يلبوا نداءه ، لانشغالهم بمسائلهم الشخصية ، واضطراب أحوال دولهم • وعلى العكس كان المدد يأتيه

باستمرار من عسكر مصر على حد قول المؤرخين ، وبمجرد وصولهم ، كانوا يرسلون الى ميدان المعركة المشتعلة ، ومن الأمراء الزنكيين بالجزيرة ، الذين نسوا فى جهادهم ، عداوة صلاح الدين للبيت الزنكى ·

فلما تكاثر الفرنجة على عكة فى البر والبحر ، ازدادت الأمور سوءا بالنسبة لحاميتها ، وبخاصة منذ أن وصل الأسطول الانجليزى ، الذى أحكم حصارها من البحر ، حتى انه فى احدى المرات لما حاولت بطسة مصرية حمل الأطعمة الى حامية عكة ، اضطر بحارتها وعددهم سبعمائة رجل الى اغراقها والغرق معها · لذلك قرر سيف الدين المشطوب كبير القواد ، وقراقوش حاكم البلدة ، الخروج الى ملك فرنسا ، لتسليم البلد ، على ان يمنح أهلها الأمان · ولا ندرى سبب اختيار المشطوب لملك فرنسا بالذات ، ربما لأن حامية عكة لم تحس بوطأته عليها مثلما أحست بوطأة ملك الانجليز · ومع ذلك فان ملك فرنسا ، رفض منح الأمان لحامية عكة وان سلمت ، بحيث قال المشطوب له مغتاظا : « نحن لا نسلم البلد حتى نقتل جميعا » · فكان تصرف ملك فرنسا يدل على غرور وبعد عن المروءة ، على عكس تصرف صلاح الدين ، الذى طالما أسرف فى منح الفرنجة الأمان . وبخاصة فرنجة بيت المقدس الذين بلغ عددهم مائة ألف ·

ولقد أدرك صلاح الدين ازدياد خطورة الموقف فى عكة ، فبذل جهده للتخفيف عنها بمهاجمة الفرنجة باستمرار : فكان كلما زحف الصليبيون على البلدة دقوا كؤوسهم « طبولهم » ، فتدق كؤوس صلاح الدين ليهاجمهم · وفى هذه الفترة الحرجة ، كان عسكر صلاح الدين وقواده ، لا ينامون ويبذلون جهدهم لانقاذ حاميتها · وفى سبيل ذلك ، لجأ صلاح الدين الى حل أخير : بأن عرض على الفرنجة تسليم البلدة ، واطلاق سراح أسراهم ، ورد

صليبهم المقدس « صليب الصلبوت » ، لقاء منح الأمان لحامية عكة · ولكنهم اشترطوا اعادة جميع البلاد التى استولى عليها ، بما فيها بيت المقدس ، مما جعل صلاح الدين يرفض فكرة مصالحتهم نهائيا ·

لذلك أصبح سقوط عكة وشيكا ، ولا سيما أن أسوارها تهدمت تحت رمى منجنيقات الفرنجة الكثيرة ، وكانوا قد نصبوا على موضع واحد ثلاثة عشر منجنيقا · فكان كلما فتحت ثغرة فى السور ، سدها رجال عكة بأشلاء الموتى · ولكن لما تهدم أغلب السور ، ودمرت أبراجه ، انحدر الفرنجة نحوه بجموع كثيرة ، ودخلوا البلدة ، ورفعوا راياتهم التى تحمل الصليب عليها · ومع ذلك استمر القتال فى الشوارع من بيت الى بيت وعلى الأسطح ، وبقيت بعض مواضع فى البلدة ترد بمنجنيقاتها · وأخيرا سلمت عكة يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧/يوليو ١١٩١ · وذلك بعد قتال مرير استمر حوالى ثلاث سنوات ، مما خلد مقاومتها فى التاريخ ·

فأسرع صلاح الدين بعرض الفداء لعسكره بالمال ، وكان عددهم كبيرا يزيد على عشرة آلاف ، وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش · فدخل الفرنجة فى مفاوضات · بمقتضاها يطلقون سراح المسلمين لقاء مائتى ألف دينار من ذهب ، ويرد للفرنجة أسراهم ، وصليبهم المقدس · ولكن الفرنجة رفضوا اعطاء أية ضمانات لتسليم الأسرى المسلمين ، مما جعل صلاح الدين يرفض الاتفاق ، فانتقم ملك الانجليز بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين · ويبدو من أقوال بعض فرسان الفرنجة أن تصرف ملك الانجليز المشين أسخطهم عليه ، كما أن ملك فرنسا رفض أن يجاريه فى قتل أسرى المسلمين · وفيما بعد قدم صلاح الدين فدية مملوكه قراقوش بمبلغ قدره عشرة آلاف دينار ، فلما

باستمرار من عسكر مصر على حد قول المؤرخين ، وبمجرد وصولهم ، كانوا يرسلون الى ميدان المعركة المشتعلة ، ومن الأمراء الزنكيين بالجزيرة ، الذين نسوا فى جهادهم ، عداوة صلاح الدين للبيت الزنكى ٠

فلما تكاثر الفرنجة على عكة فى البر والبحر ، ازدادت الأمور سوءا بالنسبة لحاميتها ، وبخاصة منذ أن وصل الأسطول الانجليزى ، الذى أحكم حصارها من البحر ، حتى انه فى احدى المرات لما حاولت بطسة مصرية حمل الأطعمة الى حامية عكة ، اضطر بحارتها وعددهم سبعمائة رجل الى اغراقها والغرق معها ٠ لذلك قرر سيف الدين المشطوب كبير القواد ، وقراقوش حاكم البلدة ، الخروج الى ملك فرنسا ، لتسليم البلد ، على ان يمنح أهلها الأمان ٠ ولا ندرى سبب اختيار المشطوب لملك فرنسا بالذات ، ربما لأن حامية عكة لم تحس بوطأته عليها مثلما أحست بوطأة ملك الانجليز ٠ ومع ذلك فان ملك فرنسا ، رفض منح الأمان لحامية عكة وان سلمت ، بحيث قال المشطوب له مغتاظا : « نحن لا نسلم البلد حتى نقتل جميعا » ٠ فكان تصرف ملك فرنسا يدل على غرور وبعد عن المروءة ، على عكس تصرف صلاح الدين ، الذى طالما أسرف فى منح الفرنجة الأمان ، وبخاصة فرنجة بيت المقدس الذين بلغ عددهم مائة ألف ٠

ولقد أدرك صلاح الدين ازدياد خطورة الموقف فى عكة ، فبذل جهده للتخفيف عنها بمهاجمة الفرنجة باستمرار : فكان كلما زحف الصليبيون على البلدة دقوا كؤوسهم « طبولهم » ، فتدق كؤوس صلاح الدين ليهاجمهم ٠ وفى هذه الفترة الحرجة ، كان عسكر صلاح الدين وقواده ، لا ينامون ويبذلون جهدهم لانقاذ حاميتها ٠ وفى سبيل ذلك ، لجأ صلاح الدين الى حل أخير : بأن عرض على الفرنجة تسليم البلدة ، واطلاق سراح أسراهم ، ورد

صليبهم المقدس « صليب الصلبوت » ، لقاء منح الأمان لحامية عكة ٠ ولكنهم اشترطوا اعادة جميع البلاد التى استولى عليها ، بما فيها بيت المقدس ، مما جعل صلاح الدين يرفض فكرة مصالحتهم نهائيا ٠

لذلك أصبح سقوط عكة وشيكا ، ولا سيما أن أسوارها تهدمت تحت ردى منجنيقات الفرنجة الكثيرة ، وكانوا قد نصبوا على موضع واحد ثلاثة عشر منجنيقا ٠ فكان كلما فتحت ثغرة فى السور ، سدها رجال عكة بأشلاء الموتى ٠ ولكن لما تهدم أغلب السور ، ودمرت أبراجه ، انحدر الفرنجة نحوه بجموع كثيرة ، ودخلوا البلدة ، ورفعوا راياتهم التى تحمل الصليب عليها ٠ ومع ذلك استمر القتال فى الشوارع من بيت الى بيت وعلى الأسطح ، وبقيت بعض مواضع فى البلدة ترد بمنجنيقاتها ٠ وأخيرا سلمت عكة يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧/يوليو ١١٩١ ٠ وذلك بعد قتال مرير استمر حوالى ثلاث سنوات ، مما خلد مقاومتها فى التاريخ ٠

فأسرع صلاح الدين بعرض الفداء لعسكره بالمال ، وكان عددهم كبيرا يزيد على عشرة آلاف ، وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش ٠ فدخل الفرنجة فى مفاوضات بمقتضاها يطلقون سراح المسلمين لقاء مائتى ألف دينار من ذهب ، ويرد للفرنجة أسراهم ، وصليبهم المقدس ٠ ولكن الفرنجة رفضوا اعطاء أية ضمانات لتسليم الأسرى المسلمين ، مما جعل صلاح الدين يرفض الاتفاق ، فانتقم ملك الانجليز بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين ٠ ويبدو من أقوال بعض فرسان الفرنجة أن تصرف ملك الانجليز المشين أسخطهم عليه ، كما أن ملك فرنسا رفض أن يجاريه فى قتل أسرى المسلمين ٠ وفيما بعد قدم صلاح الدين فدية مملوكه قراقوش بمبلغ قدره عشرة آلاف دينار ، فلما

فك أسره فى شوال من العام التالى سنة ١١٩٢/٥٨٨ ، فرح به صلاح الدين فرحا شديدا . كذلك تمكن سيف الدين المشطوب الهروب من الأسر ، فوصل الى القدس فى جمادى الآخره من نفس هذا العام ، ولم يلبث أن توفى .

بعد هذا النصر المسيحى ، أصبحت عكة أهم قواعد الفرنجة بالشام ، تأتيها مراكبهم الكبيرة ، حاملة الامدادات الكثيرة . ويبدو أن الفرنجة أعادوا اليها طائفة فرسان الاسبتارية للدفاع عنها ، وهم الذين قضى عليهم صلاح الدين فى حروبه ، ولكنهم أصبحوا يعرفون باسم فرسان القديس يوحنا «Saint Jean» ، فسميت المدينة باسمهم «Saint Jean d'Acre» . ولقد استمر الصليبيون الى عهد سلاطين المماليك ، يستخدمون عكة كقاعدة أمامية فى حروبهم ضد المسلمين ، يصبون منها عليهم جام تعصبهم ، الى أن استولى عليها السلطان المملوكى الأشرف خليل سنة ١٢٩١/٦٠٠ ، فأعادها الى حظيرة بلدان الاسلام .

ولحسن الحظ أن الفرنجة تمهلوا بعض الوقت لسوء التفاهم الذى دب بين ملوكهم فى الأراضى المقدسة . فقد طالب كونراد — المركيس — بعرش مملكة بيت المقدس بعد موت سيبلا ، التى لم تترك وريثا ، ولأنه تزوج بأختها الصغرى المسماة ايزابيل «Ysabelle» بعد طلاقها — على ما يبدو — برغبتها من زوجها هنفرى «Hanfroi» ، الذى لم تكن له شخصية لينافسه ، فانتقل الملك الى الصغرى بوفاة الكبرى : اذ كانت كلتاهما أخت بودوان الرابع (أوبلدوان) ، وأن جى نفسه كان قد أخذ الملك بسبب زواجه من سيبلا . وبينما أخذ ريتشارد جانب جى ، الذى كان قد تقرب اليه بارسال مدد ضد القبارصة مع أخيه ، فان فيليب أخذ جانب كونراد الذى وضع صور تحت حمايته .

وفى الوقت الأخير من حصار عكة ، استشعر كونراد الغضب من ريتشارد ، فانسحب الى صور . فاضطر ريتشارد الى التدخل لحل مسألة عرش بيت المقدس فى مجمع من القسوس والفرسان ، وذلك بأن يكون كونراد وريث جى ، وأنه اذا مات الاثنان ورث هو هذا العرش . وقد كان استئثار ريتشارد بكل شىء ، ونقضه اتفاقه مع فيليب فى اقتسامه كل ما يفتح سواء فى قبرص أو فى عرش مملكة بيت المقدس ، سببا جعل فيليب — بعد فتح عكة — يغادر الأراضى المقدسة غاضبا . وسيكون هذا الافتراق من أسباب اشعال حرب المائة عام الرهيبة بين المملكتين فيما بعد .

ولكن ازداد خوف كونراد من ريتشارد بمغادرة فيليب الأراضى المقدسة . ولعله فعل مثلما فعل أمير طرابلس — القمص أو القمس — من قبل ، فاتصل بصلاح الدين وتصالح معه ، ليعارض به أطماع ملك الانجليز ، الذى كان يرغب فى الانفراد بملك الأراضى المقدسة . فجر هذا التصرف على ما يبدو الى قتله بتحريض من ملك الانجليز ، ولاسيما أن كونراد كان شخصية هامة ، فبفضل ثباته فى صور تحولت هزيمة الفرنجة الى نصر ، بعد أن كاد صلاح الدين يلقى بهم الى البحر . ومن ناحية أخرى ينسب بعض المؤرخين قتله الى فداويه الاسماعيلية بالشام ، الذين أرادوا خدمة صلاح الدين بأن يوقعوا بين الفرنجة . ويقول عماد الدين الكاتب عن ذلك : لم يعجبنا قتل المركيس فى هذه الحالة ، لأنه كان عدو ملك الانجليز .

وفعلا ظهرت أطماع ريتشارد فى السيطرة على صور بمجرد قتل المركيس ، فعين هنرى دى شامبين «Henri de Champaigne» ، — الكندهرى — الذى أسرع بالذهاب الى صور بعد قتل كونراد ، وتزوج بايزابيل مع أنها كانت حاملا — برواية

مؤرخى العرب ، ليصبح صاحب حق فى عرش مملكة بيت المقدس .
وكان هنرى قد وصل الى الساحل الشامى قبل ريتشارد ، وكان
من أسباب تقوية المحاصرين أمام عكة كما ذكرنا . ونجد ريتشارد
يعوض جى عن حقه فى مملكة بيت المقدس ، باعطائه قبرص ، التى
باعها للداوية بعد مجيئه لحصار عكة ، على أن يدفع جى المال الذى
أخذه ريتشارد من الداوية .

ولقد استفاد صلاح الدين من تمهل الفرنجة فى تدبير أمر
مقاومتهم . فكان من رأيه أن يقاتلهم فى عسقلان ليشغلهم عن التوغل
نحو بيت المقدس ، وهى مدينة حصينة جدا منذ أيام الفاطميين ،
بأعلى فلسطين على ساحل البحر قرب غزة ، كانت اشتهرت بمقاومتها
للفرنجة نصف قرن قبل أن يستولوا عليها ، وكانت خطرا على
مملكتهم الناشئة فى بيت المقدس . ولكن قواده عارضوا خطته ،
وحرضوه على هدم عسقلان وغيرها من الحصون ، وترك الساحل ،
واتخاذ خط دفاعى داخل البلاد .

كذلك أسرع صلاح الدين بالذهاب الى القدس ، ليشرف على
تقوية تحصيناتها . ولدينا رخامة من سنة ٥٨٧/١١٩١ ، تبين
أنه جدد السور وعمره بالأبراج ، وأمر بحفر خندق غير الذى كان
موجودا . وقد هرع الى صلاح الدين بالقدس ، متخصصون للقيام
بالتحصينات ، كما استخدم أسارى الفرنجة . وكان من المناظر
المؤثرة اشتراك السلطان وأولاده والأمراء والقضاة والصوفية والزهاد
فى حمل الحجارة فى القفاف على الخيول . كذلك قوى صلاح الدين
بيت المقدس بعسكر مصر ، الذين أصبحوا المنقذين للمسلمين من
كل خطر ، ويرجع اليهم فضل استنقاذه من الفرنجة .

على العموم انتقد الفرنجة تمهل ريتشارد فى مواصلة القتال
بعد الانتصار فى عكة ، ومنهم كونراد الذى كتب اليه قبل أن

يقتل ، يعيب عليه أن يسمح للمسلمين بتخريب عسقلان ، ولا
يسرع الى الاستيلاء عليها . وفعلا لما تحرك ريتشارد للهجوم على
مدن الساحل ، وجد أغلبها مهدما ، كما وجد مقاومة شديدة من
جانب المسلمين ، وبصفة خاصة فى مدينة يافا ، الواقعة على ساحل
بحر الشام بجوار عكة ، حيث كاد يؤخذ فيها أسيرا . فكان
ريتشارد فى أثناء زحفه ، لا يفارق البحر ، وينتقل من بئر الى
بئر ، وخصوصا ان المياه قريب بعضها من بعض ، حتى وصل الى
الأراضى المصرية ، وصدم عساكر مصريين قاصدين لصلاح الدين
وهزمهم . وقد كان هدفه احتلال ساحل الشام كله ، وقطع الطريق
بين الشام ومصر ، وذلك قبل أن يهاجم بيت المقدس . فاستولى
ريتشارد على معظم الساحل حتى حدود مصر ، وأخذ فى تعمير قلعة
عسقلان ، كما أنه وصل فى اغاراته الى قريب من بيت المقدس عدة
مرات . ولما حاول صلاح الدين استعادة يافا ، حضر اليها ريتشارد
واضطره الى الانسحاب .

وقد أظهر ريتشارد فى حروبه مع المسلمين شجاعة ممتازة ،
تحدث عنها أغلب المؤرخين ، سواء أكانوا من الفرنجة أم من
المسلمين . فوصفه ابن الأثير بقوله : انه كان رجل زمانه شجاعة
ومكرا وجلدا وصبرا ، أما ابن شداد فيقول عنه : انه عظيم
الشجاعة ، قوى الهمة ، وله جسارة على الحروب . ويقول عنه
تشرشل فى كتابه : « أبطال التاريخ » ، انه أفرس الفرسان فى
العصور الوسطى ، حيث كانت له سهولة فى استخدام السلاح ،
فكان يقتل المسلم بخبطة من درعه . ولعل ريتشارد قد استحق
بشجاعته هذا التلقيب ، الذى أصبح يعرف به : ريتشارد قلب
الأسد «Richard the Lion Heart»

ولكن ريتشارد ، الذى طالت غيبته عن بلاده ، سمع أخبارا

سيئة من أن أخاه يحاول اغتصاب مملكته أثناء غيابه بتحريض فيليب ، فأرسل يطلب الصلح · والواقع انه منذ حضوره الى الشام دخل فى مفاوضات مع صلاح الدين ، ربما ليعارض به ملك فرنسا . أو ربما خديعة ومكرا ، بقصد بلبلة خطط صلاح الدين · ففى أثناء حصار عكة مرض ريتشارد . وكان فى حاجة الى بعض الدجاج والفواكه والثلج . فأرسل اليه السلطان ما يريد منها ، ومكن رسله من زيارة الأسواق الاسلامية . وبعد نصر الفرنجة فى عكة . عرض ريتشارد على صلاح الدين رد البلاد جميعها ، فرفض صلاح الدين · ويبدو أن ريتشارد فى أثناء هذه المفاوضات اتصلت صداقته بالعادل أخى صلاح الدين ، حتى أنه طلب منه مرة أن يسمعه غناء المسلمين . فأحضر له العادل مغنية تضرب بالعود ، فغنت له ، فاستحسن ذلك · وبعد رحيل فيليب ، عرض ريتشارد على صلاح الدين أن يوقف القتال ويكون صلحا عاما بينهما ، ويتزوج العادل من أخته جان ، أرملة ملك صقلية غليوم ، على أن يقيم العادل وزوجته فى القدس ، وأن يشمل ملكهما ما بيد المسلمين والفرنج · وقد قبل صلاح الدين ، الا أن ريتشارد تحت تحريض رجال الدين اعتذر · كذلك أرسل ريتشارد فى طلب المناصفة على البلاد سوى القدس ، ولكن السلطان أبى ورضى أن يأخذوا ما فى أيديهم ، وأن ينزلوا له عن يافا وعسقلان ·

ولما وجد ملك الانجليز ألا سبيل الى اختراق خط دفاع صلاح الدين عن القدس ، وأن الامداد الواصلة من أوربا قلت ، قرر التفاوض جديا فى الصلح · فرفض صلاح الدين فى أول الأمر خوفا من مكره الذى تعوده منه ، ولأنه كان يرى أن الجند المسلمين مارسوا الجهاد ، ولا يضيرهم الاستمرار فيه · ولكنه قبل تحت الحاح أمرائه ، ولا سيما أن البلاد قد عانت الأهوال ، وفى حاجة الى اصلاح ، وأن الجند قد تعبوا · فوقعت المصالحة لمدة ثلاث سنين

وثمانية أشهر ، على أن تكون هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر ، وذلك يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨/ سبتمبر سنة ١١٩٢ · وقد نص فى الصلح على أن يحتفظ كل فريق بما فى يده ، على أن تخرب عسقلان التى كان ملك الانجليز حصنها ، باشراف لجنة من الفرنجة والمسلمين ، وتبقى فى أيدى المسلمين أرضا منزوعة السلاح : (No man's land) ، وأن يسمح للحجاج النصارى بالوصول الى بيت المقدس · كذلك دخلت امارة انطاكية وطرابلس التابعة لها فى الصلح ، وحضر أميرها الى بيروت ومعه عدد كبير من أمراء امارته ، فأظهر له السلطان البشاشة ومنحه التشاريف ، كما وافق على الصلح ، أمير صور الجديد — هنرى — الذى أصبح أكبر أمراء الفرنجة فى الساحل الشامى · وبمقتضى هذا الصلح لم يبق للمسلمين على الساحل الشامى غير نطاق ضيق يشمل صيدا وبيروت وجبيل ، الا أنهم أبقوا على معظم داخلية البلاد بأيديهم ، وأبعدوا خطر الفرنجة عن مصر ، واحتفظوا ببيت المقدس ·

وقد كان اقرار شروط الصلح بداية لصلات المودة ، فاختلط العسكر ، واختلطت التجارة · وقد أمر صلاح الدين بالمناداة فى الجند : أن الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل · بذلك وصل الحجاج الى القدس ، وزاروا كنيسة القيامة المقدسة ، ويبدو أن ملك الانجليز كان سيىء القصد كعادته ، فأرسل الى السلطان يطلب منه ألا يسمح للنصارى بالحج الا باذن منه · ولكن السلطان الذكى رفض ، حتى لا يجعل له بمقتضى هذا الحق أية سيطرة ولو معنوية على بيت المقدس ، وأيضا خوفا من غضب الحجاج النصارى — وهم من أجناس مختلفة — وعودتهم الى اثارة أممهم ضده · ولا يبدو أنه بعد هذا الصلح أو قبله اجتمع ريتشارد مع صلاح الدين فى مقابلة ، وانما كان التفاوض بينهما عن طريق الرسل ،

ومصادقتهما على الصلح عن طريق أخذ الرسل ليد السلطان وريتشارد ، وذلك لأن هذا الأخير رفض أن يحلف يمين الوفاء ، بحجة أن الملوك لا تحلف .

●

وبعد الصلح عاد ملك الانجليز الى بلاده عن طريق ألمانيا ، ولكنه أسر عاما كاملا ، ولم يمنح حريته الا بعد أن جمع له رجال الكنيسة مالا كثيرا . أما صلاح الدين ، الذى لم يطمئن الى نوايا الفرنجة ، فقد رجع الى مدينة القدس وأعاد تقوية حصونها ، ثم دخل دمشق بعد غيبته عنها أربع سنين . فاستقبل فيها استقبال البطل المظفر ، واحتفل بذلك عدة أيام ، وهو الذى جعل منها المركز الأول لمحاربة الصليبيين .

ولكن صحة السلطان كانت قد تأثرت بهذا الجهاد المستمر ، فلم يلبث فيها الا وقتا قصيرا حتى وافته المنية بعد مرض حاد أخصه فى رأسه ، وذلك فى ليلة الأربعاء سابع عشر من صفر سنة ٤/٥٨٩ مارس ١١٩٣ ، وله من العمر سبع وخمسون سنة . فكان موته يوما مشهودا ، لم يصب الاسلام بمثله منذ الخلفاء الراشدين ، حتى خيل أن الدنيا كلها تبكى فى صوت واحد ، على حد قول المؤرخين . فشيعته زفرات الباكين وعويلهم ، حيث حمله العلماء – الذين كان يحبهم ويحبونه – فى تابوت على أعناقهم ، ليدفن فى قلعة دمشق . وبعد ذلك بنى ابنه الأفضل مقبرة خاصة شمال جامع دمشق ، لا تزيد عن خمسة أمتار طولا فى مثلها عرضا ، فنقل اليها السلطان فى سنة ١١٩٦/٥٩٢ . وقد قال عماد الدين الكاتب فى مناسبة موت صلاح الدين : « مات بموته الرجال ، وأدلهمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ، ورزىء الاسلام بمشيد أركانه » .

ولقد ترك السلطان الكبير بموته فراغا كبيرا فى العالم الاسلامى ، الذى فقد بطله وناصره : فبعد موته انقسمت امبراطوريته التى امتدت من طرابلس الغرب الى ديار الجزيرة بين أبنائه الكثيرين ، اذ خلف صلاح الدين سبعة عشر ولدا ذكرا غير الاخوة وأولاد العم ، واولاد شيركوه . ووقع الخلف بينهم ، كما ان أمراء الزنكيين عملوا على الاستفادة من ظروف موته للخروج عن سيطرة الايوبيين . وكانوا جميعا يملؤهم الحقد والغضب والرغبة فى السلطان ، ولكن روح صلاح الدين ومبادئه كانت لا تلبث أن تعود اليهم كلما ظهر خطر خارجى ، فيتحدون فى القضاء عليه . بل ان روحه كانت كثيرا ما تعود الى حكام الاسلام من غير أهله ، فى كل مناسبة يتهددهم خطر خارجى .

ولدينا عدة صور لصلاح الدين لا يعرف مصدرها ، وان كان يبدو أنها من تصوير الفرنجة ، لأن المسلمين كانوا يكرهون التصوير ، ولأن بطريرك بيت المقدس لما أثار أوربا ضد صلاح الدين ، كانت معه صورة لعربى يضرب المسيح . ويبدو أن شكل صلاح الدين كان معروفا للأوربيين ، حتى أن الشاعر دانتى Danti ميزه فى أعتاب الجحيم المسمى « اللمبو » ، مع حكماء العالم القديم وأبطاله . ومن ناحية أخرى ، قد تكون من تصوير القبط المصريين ، الذين كانوا يضعون صورته بجانب الآنية المقدسة فى الكنائس ، تقديرا لحكمة العادل ، وقد وجد أحد المستشرقين الروس صورته فى احدى أديرتهم . فقد يكون فن التصوير بدأ فى هذا العصر يأخذ طريقه الى جانب الفنون الأخرى فى بلاد الاسلام . فيظهر صلاح الدين فى هذه الصورة وسيما مهيبا ، هادىء الوجه واضح الجبين ، ذا عينين ثاقبتين ، وأنف غير معوج ، ولحية طويلة . ولعله كان به عرج ، بحيث لم يسلم من هجاء شاعر خبيث ، نفاه صلاح الدين الى الهند بسبب هجائه له .

الخاتمة :

لا ريب ان صلاح الدين مثل للشرقى الطموح ، الذى استطاع ان يحقق أهدافا عالية ، جعلت منه شخصية تصنع التاريخ . فهو لم يرث ملكا ، وانما تدرج من رئيس للشرطة بدمشق ، الى قائد فى حملة عمه شيركوه ، الى وزير لخليفة مصر ، الى نائب لسلطان الشام ، ثم الى سلطان يحكم امبراطورية واسعة فى الشام ومصر والجزيرة ، والحجاز واليمن ، وبرقة وطرابلس والنوبة ، ويكون لنفسه فيها أسرة حاكمة عرفت باسمه أو لقبه أو اسم أبيه أو أصله : الصلاحية ، أو الناصرية ، أو الأيوبية ، أو الأكراد . ونرى فى تاريخه أيضا ارتباط القدر بحياة الانسان وتصرفاته ، فهو على حسب ملاحظة ابن الأثير حصل لنفسه ولأعقابه على الملك ، مع ان الملك فى أسرته بدأ بعمه شيركوه ، مثلما حدث من قبل فى التاريخ ، فانتقل الملك من أعقاب معاوية الى بنى مروان من بنى عمه ، ثم من العباس الى ذرية المنصور أخيه ، وغير ذلك .

فقد شعر صلاح الدين الطموح بالمذلة من جراء مجىء الأوربيين ــ الفرنجة ــ يستعمرون فى الشرق باسم الدين . فوضع نصب عينيه ان يكون الشرق لأهله . ولكنه وجد دول الشرق متنازعة متنافرة : فوجه همه الأول الى تكوين جبهة متحدة تجمعهم ، ليجابهوا عدوهم العتى ، الذى استفاد من تشتتهم ، حيث يظهر حماسه فيما كان يكتبه الى ملوك الاسلام ، وبخاصة الى خليفة المسلمين

بالعراق . والواقع ان دعوة صلاح الدين للتكتل ، لم يكن وراءها تعصب دينى ضد النصارى كما هو الحال بالنسبة للفرنجة ، وانما كان قصده تجمع سكان الشرق الذين كان أغلبهم من المسلمين لطرد الغزاة الأجانب . واذا كانت دعوته قد وجهت باسم الاسلام ، فلأن أساس طابع العصر دينى ، ولأن الاسلام هو المسيطر فى بلاد الشرق . فمنذ الزمن القديم وتتحد بلاد الشرق بجميع عناصرها ضد الغزاة ، فى عهد الفراعنة ، وحتى بعد عصر صلاح الدين الى وقتنا الحديث .

حقا انه اضطر لتحقيق هذا التكتل الى استخدام القسوة الشديدة فى أول الأمر وبخاصة فى مصر ، التى قاوم أهلها من المسلمين الشيعة والقبط حكمه العسكرى ، الذى استعان فى توطيده بعناصر من الكرد والترك الغرباء عنهم ، كما قاتل أمراء البيت الزنكى ، بما فيهم ابن نور الدين ، صاحب نعمته . كذلك لم يكن يسمح للمفكرين بالفكر الحر باظهار آرائهم التى تعارض جماعة أهل السنة ، خوفا من تصدع الوحدة التى تقوم على أساس هذا المذهب : فبأمره قتل السهروردى المتصوف والفيلسوف المعروف صاحب الرأى الحر ، الذى لا يتذلل الا لله . ولكن سرعان ما أدركت شعوب الشرق ، بعناصرها المختلفة من مسلمين ونصارى ، وحكام ورعايا ، نبل أهدافه ، فضلا عن أن القدر كان فى ركابه ، فاقبلوا على الانضواء تحت زعامته .

فلما اطمأن الى تضامن الشرقيين ، عمل على بث روح النضال بينهم ، وهم الذين وصفوا بأنهم أصحاب اذعان للقضاء ، واستسلام للقدر . ولحسن الحظ أن صلاح الدين ، كان يتمتع بروح مكافحة . لا يستقر لها بال حتى تحقق أهدافها . ولقد هجر فى مجد الجهاد أهله وأولاده ووطنه وراحته ، ليقنع بالعيش فى ظل خيمة فى واحة الوعى ، وكان شجاعا قوى النفس ، عظيم الثبات ، لا يقلقه

أى أمر اذا اشتد الحرب : يطوف بين العسكر ، ويأمر بالتقدم والوقوف ، ويدخل صفوف العدو • ففى حكمه الذى استمر أربعا وعشرين سنة ، أمضى منها ست عشرة سنة فى الحملات ، وبذلك أعاد للشرقيين ذكرى قوادهم العظام ، الذين يعيشون على رأس جنودهم فى الميدان ، يشاركونهم الأخطار ، وهذه صفة هائلة •

كذلك خلق صلاح الدين المثالية فى حكم شعوب الشرق ، الذين كان حكامهم بما فيهم الخلفاء ، قد بهرتهم الأموال وأبهة السلطان ، بحيث ان الشرق اشتهر بالترف والبذخ ولين الحياة • فقد تميز صلاح الدين فى عيشته من بين ملوك عصره بالبساطة ، وبعده عن أبهة الملوك ، فلم يكن السكنى فى القصور ، وكان يلبس ملابس مصنوعة من الكتان والقطن والصوف وكان يعتبر نفسه وأسرته خزنة المسلمين وحراسا لأموالهم • والدليل على هذه المثالية ، انه فى مرة رأى عماد الدين الكاتب يكتب من دواة محلاة بالفضة فأنكرها ، كما انه عند وفاته لم يترك دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا شيئا ، ولم يبق فى خزانته الا سبعة وأربعون درهما • فسيرته أعادت للمسلمين ذكرى عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وكلاهما أصبحت سيرته فى عداد الأساطير •

وفوق ذلك ، كان مثلا للحكام المقدرين لمسؤوليتهم ، ينهج التدين ، ويسعى الى التعلم • فكان يصلى غالبا فى جماعة ويصوم كثيرا مع ضعف بنيته ، ويسمى نفسه : خادم الحرمين الشريفين ، بحيث عده الناس من أولياء الله ، الذين يتبرك بهم • كذلك أقبل على تفهم أصول دينه ، وقام بالرحلة الى الاسكندرية ، لسماع الحديث على أكبر علمائها أمثال أبى الحافظ السلفى وأبى الطاهر بن عوف وغيرهما من المتفقهين فى المذهب الشافعى ، وهو المذهب الذى تعصب له ، كما كان كثير الاطلاع على أنساب العرب ووقائعهم

وسيرهم • فكان يتتلمذ على العلماء محافظا على تقاليد ملوك المسلمين ، فى توقيرهم العلم والعلماء •

وقد أوجدت مبادىء صلاح الدين ثمرتها فى قيام أهل الشرق كرجل واحد للنضال ضد المستعمر الأجنبى المتعصب • فتمكنوا من تخليص الأراضى المقدسة ، والتغلب على أعتى الجيوش الصليبية بما فيها الألمانية والانجليزية والفرنسية . اذ يقول ابن الأثير على لسان أحد كبار الفرنجة ان من خرج منهم – من الفرنجة – فى البحر كانوا ستمائة ألف رجل ، لم يعد منهم الى بلادهم الا واحد من كل عشرة ، بعضهم قتله المسلمون أو غرق فى البحر أو مات بالمرض • فكان لهذه الضربات القاصمة على يد صلاح الدين أثرها فى درء خطرهم عن الشرق فترة طويلة لم تتجدد الا فى العصر الحديث فى شكل استعمار صريح ، وذلك لأن الشرقيين كانوا قد تناسوا مبادئه •

ولا مراء فان شخصية صلاح الدين لقيت الاعجاب الشديد على مر الزمان ، وأصبح اسمه يدل على الزعامة الرشيدة ، بحيث يقول الحنبلى فى كتابه : « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » ، جمعت سيرته ليقتفى بها الملوك ، كما أصبح قبره فى كل وقت مزار رجال الوطنية ، الذين يبغون أهداف صلاح الدين • كذلك لقيت مآثر صلاح الدين الاحترام لدى أعدائه ، فمن أقوال أحد كبرائهم له : أنت سلطان عظيم ، وملك كريم ، وملك رحيم وقد شاع عدلك ، وذاع فضلك ، وقهر سلطانك ، وظهر احسانك •

كما اعتبره معاصرنا تشرشل عند كلامه عن سير أبطال بلاده من أعظم ملوك الأرض سياسة • بل ان أعداء الشرق الحديثين ، لما استعمروه ، كانوا يقدرون ما حققه صلاح الدين فى جهاده للصليبيين ، والمبادىء التى بثها بين أهل الشرق : فالمرشال اللنبى

«Allenb» ، قائد الجيوش البريطانية فى الشرق ، حينما وصل الى القدس قال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ، اشارة الى أنها ضاعت من الأوربيين باستيلاء صلاح الدين عليها ، الى أن عادوا اليها ، كما قال الجنرال الفرنسى جورو «Gouraud» ، أمام قبر صلاح الدين حينما دخل سورية : « قد عدنا يا صلاح الدين » .

وأخيرا أرجو بهذا العرض لسيرة البطل الخالد صلاح الدين ، أن أكون — من خلال سيرته المثيرة ، وتاريخه الحافل — قد وفقت الى استخلاص ما فى حياته من دروس وعظات ، وأن أكون قد جلوت صورة الشرق اللامعة حينما يجد الزعيم الكفء والقائد المخلص ، فينطلق الى غايته من المجد والقوة والعزة والسلطان .

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

العدد القادم

رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية فى عصره .

د . على بركات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٩٨٨ / ١٩٨٧

ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ١٤٧١ — ٥

الدراسة التى نقدمها فى هذا العدد من السلسلة ، كتبها الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد ، أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة عين شمس ، وصاحب العديد من الدراسات التاريخية فى مجال تخصصه ، التى تجعل منه واحدا من أبرز مؤرخى التاريخ الإسلامى فى مصر . وهى دراسة جادة رجع فيها الدكتور عبد المنعم ماجد إلى عدد ضخم من المصادر الإسلامية الأصلية ، وأستند فيها إلى الكثير من الأسانيد التاريخية ، وقد عالج فيها أحوال المسلمين السياسية قبل مجىء صلاح الدين الأيوبى ، ثم تناول ظروف ظهوره على المسرح السياسى ، وقضاءه على الخلافة الفاطمية ، التى ترددت فى الضعف والفساد حتى أستعانت بالصليبيين، ثم قضاءه على الدولة الأتابكية ، ووراثته ملكها ، وتكوينه أكبر امبراطورية فى الشرق . ثم تفرغه لقتال الصليبيين، وتغلبه على أعتى الجيوش الأوروبية ، وتخليصه الأراضى المقدسة ، وإبعاده خطر الفرنجة على مصر .

ويقينى أن القارىء سوف يستمتع بهذه الدراسة التاريخية القيمة .

٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب